

حول الدين والدولة

- حَوْلَ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ
- الْإِنْتِمَاءُ وَالْإِلْتِزَامُ
- أَزْمَةُ الْمُشَقِّقِينَ
- الْأَزْهَرُ
- الْحُرِّيَّةُ

الثلث ٢٠٠ ق. ل. او ما يعادلها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حول الدين والدولة

نجيب الكيلاني

حول الدين والدولة

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب. ٦٣٤٧١

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٧١ م - ١٣٩١ هـ

الطبعة الثانية

١٩٧٦ م - ١٣٩٦ هـ

هـ الكتاب

إن اصطراع الفكر في عالمنا الإسلامي الكبير — مهما كان الأمر — ظاهرة صحية ، كما أن عنف الجدل الصاخب ، يحمل في طياته الرغبة في بلوغ الحقيقة ، الكل يحاول جاهداً أن يقول الكلمة الأخيرة ، تلك الكلمة التي تلج غالباً على من لديه الاستعداد لقولها ...

وهناك قضايا إسلامية كثيرة تفرض نفسها بقوة ، أعني تفرضها متطلبات حياتنا العصرية ، ومعاركنا الشرسة مع الأعداء أولئك الذين تسلحوا بكل أنواع الأناية والحقد والطمع .. ومن هذه القضايا قضية الدين والفن ، والدين والدولة ، والدين والحرية ، والرسالة الكبرى التي أنيطت بالأزهر الشريف وعلمائه ..

إن كل واحدة من هذه القضايا تحتاج إلى أكثر من كتاب ،
ولكني هنا أحاول أن أضع علامات متواضعة على الطريق
الطويل لأمتنا المناضلة . فهذه الكلمات مجرد أصابع تشير .
أو قناديل صغيرة تحاول مستميتة أن تبدد بعض الظلمات المدهمة
ويقيني الكامل أن الكلمات وحدها مهما كانت قوتها ليست
قادرة على التغيير المنشود ، والكلمات إذا لم تتحول إلى طاقة
عاملة ، وسلوك فردي وجماعي ، وحركة دائبة ، وإصرار
صارم ، فلن تخلف وراءها سوى الصدى الميت ..

كل أملي أن تصل هذه الكلمات إلى شبابنا وأن يناقشوها
بصدق وإخلاص ، ولعلها تكون حافزاً لهم كي يتجهوا إلى
تراثنا الإسلامي العظيم ، ويحاولوا تمحيصه والاستفادة منه ،
إن هذه الكلمات مدخل صغير لأمر كبير ، وهذا ما أردته .
والله يوفقنا لما فيه الخير والحق ، ويجمعنا على كلمة سواء ..

نجيب الكيلاني

مقدمة

في الفكر الإسلامي بديهيات لا تحتاج لمناقشة أو استدلال ، غير أن هذه البديهيات قد تعرضت في عصرنا لمحاولات متصلة هادفة إلى تشويه هذه البديهيات وطمس معالمها . لقد أدركت الصليبية والصهيونية والحادية أن عظمة الفكر الإسلامي وتراثه الحضاري يشكلان عقبة في سبيل تحقيق أهدافها المشتركة ، ومن ثم انقضت بكل ثقلها عليهما . متخذة أبشع الوسائل وأخبيها لتوهين عرى الصمود الإسلامي ، وزعزعة الثقة به .

والمفكر المسلم لا يصح أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذا التآمر التاريخي الطويل ، بل عليه من آن لآخر أن يعرض

في ايجاز وتركيز، وبطريقة علمية واضحة، أسس الفكر الإسلامي ولبناته، حتى ولو كانت من البديهيات التي سلم بها الأولون ، والتي يسلم بها اليوم العاملون في حقل الدعوة الإسلامية ..

ومكان الفكر الإسلامي في أجهزة الإعلام مكان ضيق أو محدود ، بل ومعدوم في بعض الأحيان ، وازاء هذا التحدي والتعصب لا بد للفكر الإسلامي من اختراق الزحام ، ومجابهة التحدي ، والوصول إلى أجيالنا الحائرة ، وهو واجب يفرضه الدين على كل حامل للقلم ، وكل مالك لزمam الكلمة المطبوعة والمذاعة .

وأجيالنا تخوض معمرة مصيرية ، وهي في أمس الحاجة للوقوف إلى جوارها ، وتزويدها بالكلمة الأصيلة ، ومعاونتها في الخلاص من اغراءات الزيف والانحراف المنتشرة وراء شعارات التقدم والعدل الاجتماعي .

ويؤسفني أن أقول أن بعض المسلمين — أو كثرة غالبية منهم — قد استخزوا أمام الزحف الفكري الذي تنشره الصهيونية ودعاة المباديء الالحادية ، فلم يستجيبوا لهذا الزحف بغير اليأس والانتفاضات المستيرية ، ولو بذلوا بعض الجهد في التنقيب عن تراث فكرهم الأصيل لاستطاعوا أن يحيلوا هذه التخبطات إلى حركة ايجابية ، تقف سداً منيعاً في وجه ذلك الحقد التاريخي والفكر المنحرف ، ولاستعصى على أي دخيل أن يدمر كياننا ، ويمزق « الوجدان » الإسلامي الذي وقف صامداً نظيفاً قادراً

على مختلف الحقب والأزمان .

وفي كلمات قصار سوف نتحدث عن إحدى المشاكل،
وهي مشكلة الدين والدولة : إن صح أن تسمى مشكلة .

وعشمي أن يسارع حملة الأفلام المسلمة : في معالجة ما
يجب عرضه من قضايا اجتماعية أو أخلاقية أو اقتصادية أو
فنية أو سياسية في إطار العقيدة الإسلامية السمحاء . دون
تردد أو وجل .

حول الدين والدولة

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله
ولا تتبع أهواءهم »

الدين والدولة ، الدين والحكم ، الدين والسياسة : إن مثل هذه المصطلحات لم يكن لها وجود على الإطلاق في عصور الاسلام الأولى ، أعني لم يكن هناك ما يسمى بفصل الدين عن الدولة ، وأحسب لو أن مسلماً أو غير مسلم قد فكر في إثارة هذه القضية أيام الرسول ﷺ أو في عصر الخلفاء والتابعين ، لكان منوطاً للسخرية والاستغراب ، ولانصرف الناس عنه ، ورموه بالجنون والخرق .

كان الأوائل يفهمون الدين فهماً شاملاً متكاملًا ، يرونه أصولاً وأحكاماً موحاة الى رسول الله ، ويرونه نسيجاً واحداً يضم الأخلاق الخاصة والعامة ، يتناول حياة الفرد وحياة الأمة ، وينسق العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ويرسي أسس السلوك الفردي والجماعي ابان الحرب والسلم ، ويدبر شؤون الزواج والطلاق ، والجريمة والعقاب ، وحتى آداب السلوك الإنساني فيما يتعلق بالطعام والشراب ، والنوم واليقظة ، والصدق

والكذب ، وله نظريته الخاصة في المال العام وميزانية الدولة ،
والمال الخاص المملوك للأفراد ، ومعاملة الزوجة والأبناء والخدم ،
وعلاقات الدولة الإسلامية بجيرانها من الدول على مختلف نظمها
وأزيائها ولغاتها وأجناسها . وكان لاختيار الحاكم طرائق
عدة . تجتمع كلها على أساس واحد من الشورى والعدل
والكفاءة ، والاختيار الحر المباشر على صورة من الصور ،
وكان الحاكم ملزماً بسياسة معينة تحددها مبادئ الإسلام .
وتغذيها شريعته ، ومن انحرف عن هذه السياسة كان جديراً
بالعقاب ، ونزع الثقة عنه ، وتقويمه حتى بالسيوف ، وكانت
الرعية في ظل القيم الإسلامية ، قادرة - أو لها الحق - في
إعادة الحاكم إلى الصواب إذا ما أخطأ ، وهو بشر يخطئ
ويصيب ، وليس له قداسة أو مسحة الهيبة ، تحميه من حساب
العامه له ، وردّه إلى الجادة إذا ما انحرف .

والذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة ، إنما يقولون :
« الدين علاقة بين الفرد وربه » ، وهي كلمة حق أريد بها
باطل ، فهم يقصدون منها حصر الدين في مجموعة من الشعائر
كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها . وهذا التحديد أو التضييق
إنما هو فرية لم يويدها واقع الدين وتجربته الرائدة في العصور
الأولى ، ولم يدعمها نص قرآني ، أو دليل من السنة ، أو
رأي من آراء الفقهاء قديماً أو حديثاً . ومن ينكر أن عدل
الحاكم ، وتعفقه عن الدنيا والظلم والانحراف ، إنما هو
خلق ديني أصيل ، بل وانعكاس طيب ، أو ترجمة عملية ،

لشعائر الله وفرائضه من صوم وصلاة وغيرهما . والعلاقة بين الفرد وربّه ، إنما هي علاقة مودّاهما خلق الوازع الديني ، والضمير الحي ، والرقابة الذاتية ، وبدون هذه الأشياء ، لا يستقيم خلق ، ولا ترعرع قيم ، ولا يسود عدل ، ولا تنتشر فضيلة ؟!

والآن ، لنطرح سؤالاً هاماً في صلب هذا الموضوع ، فإن البحث عن أسباب العلة وظروفها ، قد يؤدي إلى الدواء الناجع ، والشفاء الحاسم في كثير من الأحيان .. الذي أطرحه هو : إذا كان هذا هو أمر الدين والدولة في البداية ، فكيف نبنت هذه المشكلة ؟ وكيف نادى البعض ، حتى من بعض المسلمين أنفسهم ، بفصل الدين عن الدولة ؟ ..

إن هناك عدة ظروف قد ساعدت على ظهور هذه المشكلة المفتعلة الغربية عن الإسلام ومبادئه وأهله ..

ففي أوروبا ، ساد صراع رهيب طويل بين الكنيسة ومنازعيها على السلطة . ان للدين المسيحي طبيعته ومبادئه ، وكان لرجال الكنيسة سلوكهم ومفاهيمهم الجامدة . ومن منا لا يعلم عن الخلافات المذهبية بين الكنيسة الشرقية والغربية ، أو بين الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس ، وعن الحرب الدامية التي ساقوا إليها الأباطرة والحكام ، وكانت مثلاً للوحشية والتعصب والدمار ! ومن منا لا يعرف الكثير من موقف رجال الكنيسة من حرية الفكر وحرية العقلية الناهضة في أوروبا ، وخاصة فيما

يتعلق بالكون وسننه والكشف عن القوانين الطبيعية المختلفة الخاصة بدوران الأرض ، والجاذبية وحركة النجوم، وفسولوجيا الإنسان .. الخ ..!

لقد وقفت الكنيسة من هذه الكشوفات العلمية موقفاً عنيداً، كان للكنيسة تفسيرها الخاص ، ونظرياتها الجامدة التي ما أنزل الله بها من سلطان . وكان علماء النهضة بتجاربههم ومشاهداتهم ودراساتهم قادرين على دحض نظريات الكنيسة وتأويلاتها التعسفية ، فوقع الصراع بين الفكر الحر الناهض المدعم بالدليل والبرهان، وبين الفكر الكنسي الجامد الذي افتعله رجال الدين ، في القديم. وتشبثوا به، ظناً منهم أن التنازل عنه إنما هو ضياع لهيبة الكنيسة ، وانحسار لهيبة الدين وسلطانه ، وزعزعة لعقائده . فأصبحت المعركة معركة حياة أو موت ، ومن ثم كانت المحاكمات القاسية ذات الطابع الديني لرجال الفكر والعلم ، وكان الحكم بالموت حرقاً أو قتلاً ، وكان السجن لوأد الملكات الإنسانية ، وثمره الفكر الإنساني الحر المنطلق من قيود العنف والقهر والتفسيرات الزائفة التي لا يسندها منطق قوي ، أو دليل أكيد ..

وبمرور الزمن انتصرت الحقائق الباهرة ، وتوارى الزيف والعسف ، لكن ضرورة الدين ، ودوره الحاسم في الحياة جعل طائفة من المفكرين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة .. عن العلم .. عن الحياة المادية ، وجعله علاقة محدودة في بعض الطقوس بين العبد وربّه .

إذن ، كان لهذه الدعوة في أوروبا ، وفي ظل المفاهيم الكنسية ، والظروف التاريخية .. كان لهذه الدعوة في فصل الدين عن الدولة ما يبررها ..

أما العالم الإسلامي ، في ظل القيم الإسلامية الواعية الأصيلة ، فإنه لم يقع في مثل هذه الورطات . كان علماء الطب والفلك والرياضة والطبيعات والكيمياء والزراعة وغيرها ، يفكرون في حرية ، ويعبرون عن فكرهم دون قيود أو تعسف . كان ابن الهيثم يقدم نظرياته في « البصريات » فتعال التقدير والاعجاب ، والرازي وابن سينا ، يتحدثون عن الحصبة والجذري وأمراض الكلي والملاريا ، ويقدمون المجلدات الضخمة التي ما تزال بين أيدينا دون أن يتهمهم أحد بالكفر أو المروق ، وابن النفيس يقدم اكتشافه عن الدورة الدموية (قبل هارفي بمئات السنين) ، فلا يرميه أحد بالفسوق ، والشاعر ابن الخيام يسجل كشفه عن التوقيت الشمسي ، ونظرياته في الفلك ، فيمده الحكام بما يحتاج من أدوات وأموال ، ويقوم المترجمون بترجمة الكثير من ثمار الفكر الاغريقي والروماني والفارسي ، فينالون المكافآت من ذوي السلطان ، وينالون التقدير من علماء الدين ، وابن خلدون ، يتكلم عن « المجتمع » وحركة التاريخ ويفتح آفاقاً جديدة للفكر الإنساني ، فيحظى بالتكريم . ولم يكن هناك في العالم الإسلامي سوى بعض الخلافات البسيطة المتعلقة بالتوحيد : هل القرآن مخلوق أم لا ؟ صفات الله .. الخ ، وكانت مثل هذه الخلافات محصورة وبسيطة ، انعشت الفكر

واثرته . ولم تقف عقبة في طريقه . كما كان هناك بعض الخلافات السياسية التي لبست ثوب النظريات في بعض الأحيان . وكان كل فريق يستمد أدلته ومستنداته — إن حقاً أو تعسفاً — من مبادئ الدين ، واجتهادات العلماء . وهذه هي الأخرى بقدر ما أثارت بعض الفتن ، قدمت الكثير من الانفتاح الفكري ، والجهد الإنساني الذي لا يغفل .. تلك هي قصة فصل الدين عن الدولة في أوروبا وما لابسها من موقف الكنيسة من رجال الفكر : وموقفها من استغلال الدين والدهماء لابتزاز الأموال ، وتطويع الشعب والحكومة لخدمة مصالحها ونزواتها ، مما نجا منه عالمنا الإسلامي ، ولم يقع . بحمد الله . في هوته السحيقة المظلمة . إن شعار فصل الدين عن الدولة شعار أوربي ، وبضاعة محلية لهم . ولا سوق لها في بلادنا . ولا حاجة لنا فيها .

تلك هي النقطة الأولى ، ولعلها أهم النقاط وأخطرها . أما السبب الثاني الذي من أجله انطلق شعار فصل الدين عن الدولة ، فهو حقد صليبي قديم . يغذيه التعصب والخوف ، والخوف كيف ؟ ان التزعة الصليبية لم تزال متغلغلة في قلوب الغربيين عامة ، والمبشرين وبعض المستشرقين المنحرفين خاصة .

لأن قيام الإسلام ، وانتشاره في فترة قصيرة من الزمن . وتصديه لأكبر امبراطوريتين في العالم آنذاك . وهما الفرس والرومان ، ثم امتداده حتى الصين وساحل المحيط شرقاً ،

وانطلاقه حتى فرنسا وانجلترا غرباً ، وسقوط الأندلس في قبضة الزحف الإسلامي ، وعبور الأتراك إلى أوروبا الشرقية وقيام حضارة ضخمة واعية تقدمية ، لها كل مقومات التفوق العقيدي والعلمي والمادي ، وسيطرتها على مقدرات العالم قروناً عدة.. كل ذلك قد أوغر صدر الكنيسة - في ذلك الحين - ، تلك التي حشت قلوب رعاياها بالحق والتعصب . وكانت الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان نتيجة لذلك التعصب ، وهذا التحريض . وكانت هزيمة الجيوش الصليبية بالحرارة والقضاء على أحلام الكنيسة ، وفجعية النزعة الاستعمارية الوليدة في آمالها ، كل ذلك جعل الحق الصليبي يفرخ ويزيد ، ذلك الحق الذي جمع أوروبا كي تقضي على الخلافة العثمانية في تركيا ، والذي عبر عنه اللورد « النبي » حينما احتل بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى ، ووقف على قبر صلاح الدين قائلاً : « الآن انتهت الحروب الصليبية » . ان الحروب الصليبية لم تنته في يوم من الأيام ، وإنما كانت تتخذ أشكالاً وأردية مختلفة ، فلما فشلت الجيوش والسلاح في القضاء على الاسلام في نفوس أهله وعقولهم وتراثهم ، لجأ الجبناء إلى الحروب الصليبية الفكرية ، واستغل الغرب تفوقه الحضاري ، والاعجاب بنهضته في جر السذج والجهلاء ، الذين لم يتعمقوا تراثهم وفكرهم ، إلى شباك فكره ، واياهامهم بأن الدين معوق للنمو الحضاري والتفوق الإنساني ، وان الدين علاقة بسيطة بين الفرد وربّه ، وانه لا علاقة له بالدولة أو

الاقتصاد أو السياسة . وردد المخدوعون كلمات الفكر الصليبي كالبيغاوات ، وبحماس لا يقل عن حماس فلاسفة المبشرين .

وهكذا انتقلت بضاعة أوربا إلينا ، وساعد على ذلك ما كان يرزح تحته المسلمون من فقر وجهل وتخلف وانحراف عن الدين الصحيح ، وما نكبوا به من حكام ظالمين ، يوارون أخطاءهم وسوءاتهم ومظالمهم تحت ستار الدين .

والسبب الثالث ، هو موقف علماء الدين الإسلامي .

لقد جمد هؤلاء العلماء على النصوص الجوفاء ، وأصبح اهتمامهم بنواقض الوضوء أكثر بكثير من اهتمامهم بحدود الحاكم ، وسيره على الجادة ، وانصياعه لأوامر الله . وأكثر بكثير من اهتمامهم بمشاكل المسلمين الاقتصادية ونظام المال ، وأكثر بكثير من التربية الصحيحة للنشء ، وفتح الآفاق أمام الفكر الإسلامي الإنساني والعلمي كي يمضي في تفوقه وتطوره وجهاده . واستطاع الحكام الظالمون والاستعمار الخبيث أن يعزلا علماء الدين عن جماهيرهم ، وان يجعل منهم مجرد بطانة للسلطة والسلطان ، ويغدق عليهم من الأموال والمناصب تارة ، ومن التهديد والتخويف تارة أخرى . مما يجعلهم يتوقعون ، وينشدون السلامة ، وأفقداهم الوقار والاحترام اللذين كانا رداء العلماء ، وأضاعوا عنهم الثقة التي بها عاشوا وكافحوا ، ورفعوا أصواتهم بكلمة الحق . وأصبح من الناحية العملية فصل الدين عن الدولة أمراً واقعاً لم يعبر عنه العلماء

بكلماتهم وكتابتهم ، وان عبروا عنه بسلوكهم وتراخيهم ،
وانعزالهم عن قضايا العصر ، والجماهير المتسائلة ..

لهذه الأسباب ولغيرها تخلف علماء الدين عن الركب ،
وأسلموا القيادة لطائفة من المفكرين والساسة الذين تغذوا بلبان
الغرب وفلسفاته ، ورضعوا لتأثيره وموأمراته ، فانطلقت الشعارات
المستوردة تزين صدور الصحف ، وتملأ الكتب ، وترن في
قاعات المحاضرات ، كي تعمل عملها في قتل الروح الإسلامية ،
وتمزيق التكامل الإسلامي وعزل الدين في متاحف التاريخ
والانتهام ..

بقيت كلمة أخيرة لا بد منها ، وأعني بها السبب الرابع
لسيادة هذا الشعار الذي ينادي بفصل الدين عن الدولة .

لقد أسلفنا القول بأن بعض المذاهب السياسية في التاريخ
الإسلامي ، قد أصابها الشطط والمغالاة ، وأمعنت في الاغراب
والشدوذ ، وجرت المسلمين إلى بعض الحروب . وبعض هذه
المذاهب أدى خدمات جليلة للفكر الديني والسياسي ، بلا شك ،
وبعضها أساء إلى الدين اساءات بالغة ، ونستطيع أن نقرأ الكثير
عن ذلك في الكتب المتخصصة ، كالمثل والنحل للشهرستاني ،
وكتب الخوارج - بطوائفها المختلفة - والباطنيين والفاطميين والقرامطة
والحشاشين والقاديانيين بالاضافة إلى بعض الكتب التي صدرت
في عهد العباسيين وغيرهم .. ولقد اتخذت هذه الجلافات
سنداً للمغرضين ومبشري الغرب ومستشرقيه المنحرفين ..

غير أن الذي يعنينا في هذا المجال ، هو الحركات الإسلامية الحديثة التي لعبت أدواراً ذات أثر بالغ في تاريخنا المعاصر . كان الدافع لهذه الحركات هو احياء النزعة الدينية ، واستعادة مجد الإسلام وشرائعه . وتحدي الهجمات الصليبية الفكرية والعسكرية والسياسية . وجر حكام المسلمين رغبة أو رهبة إلى الطريق الصحيح ، طريق الكتاب والسنة ، مع الأخذ بوسائل الحياة الحديثة في مجالات التكنولوجيا وعلوم الطبيعة والفيزياء والاقتصاد وغيرها ، في ظل قيم إسلامية أصيلة لها حق الأخذ والعطاء ، دون طمس لشخصيتها ومبادئها .

وكانت هذه الجماعات أو الحركات الإسلامية تؤدي دورها في ظل ظروف قاسية غاية القسوة ، كان عليها أن تقاوم الحكم المتنعت حتى تجد حرية التعبير ، وارادة التغيير ، وكان عليها ان تتصادم مع الاستعمار صاحب المصالح ، وممثل النزعة الصليبية ، وكان عليها أن تواجه أذوات الفكر والاعلام التي تديرها عقول مدربة خبيرة ، وكان عليها أن تقاوم واقعاً مرأ اليماً يرتع في أنحاء العالم الإسلامي ، مثل نظام للمال أوربي التقنين ، ومنهج للسياسة غربي الصنعة، وتعليم يستمد أصوله من الفكر الغربي ، وتقاليد لا هي بالاوربية ولا هي بالإسلامية.. عادات وافدة في الطعام والشراب والملبس والمتنديات . . . وتيارات متضاربة في الفن بشتى فروع وألوانه ...

أجل .. كان الواقع ينوء بالكثير من الخطايا والانحرافات

والأفكار والعادات في كل اتجاه . هل كانت المهمة إذن مهمة سهلة ؟

كان على الحركات الإسلامية الحديثة أن تقدم فكرها بلغة العصر .

وكان عليها أن « تقدم البديل » الذي يقوم على انقراض البناء الذي يراد هدمه ..

وكان عليها أن تكتسب رضى الوالدين في الانحراف والزيف من جماهير المسلمين ، وتمنع عنهم الخوف والرعب . وكان عليها أن تقوم بالتقنين والتشريع .

وكان عليها أن تهدم أثر الفكر المضاد ، وهو يبدو كقلعة حصينة مستعصية على الاقتحام والتدمير .

ولم يكن غريباً — برغم كل هذا — أن تنال هذه الحركات الإسلامية الحديثة ، تأييداً عريضاً بين جماهير العمال والفلاحين والطلبة ، وعدد غير قليل من علماء الدين . ولعل الأسباب الرئيسية لهذا التأييد الشعبي هي أن هذه الجماهير بطبيعتها لم يداخل فكرها الانحراف الفكري ، ولم تمزقها التيارات الفلسفية المغرضة ، كانت على فطرتها تعتر بالدين وقداسته ومثله ، كما أن هذه الجماهير لم تكن مصالحتها تصطدم بالدين ، بل إنه كان مبشراً بخلاصها من الظلم السياسي والاجتماعي في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة . ولم تكن هذه الجماهير قد ولغت في مفاتن الغرب وثقاليدته ، ولم تكن قد استوردت

لحياتها وقيمها انماطاً جديدة من المدنية الغربية ، وكانت هذه الجماهير بطبيعتها تكره حكم الاستعمار وعملاء الاستعمار ، ولم تستسلم في يوم من الأيام لارادة المستعمر « الكافر » ولا لأذنا به « المتفرنجين » ، إن صبح التعبير .

ومع هذا التأييد الضخم ، وبرغم إيماني بقوة الجماهير ودورها الحاسم في تكييف أحداث التاريخ ، إلا أن هذه الجماهير كانت خفيفة الوزن إذا ما وزنت بالقوة الاستعمارية والقوة العسكرية المحلية ، وجيش الفكر الزائف الذي يمثل الاتحاد والنفعية والدعارة الاجتماعية . لا أريد أن أطيل الحديث في هذا الجانب ، وإنما الذي يعنيني هو أن الحركات الإسلامية الحديثة تصدت لها أكثر من قوة ، وضربت بها في الصميم دون هوادة ، ولم تكن القوى المضادة بمقدرة على تصفية الحركة الإسلامية أو تخضيد شوكتها إلا بالعنف البالغ ، وواكب ذلك العنف حملة اعلامية بل حملات خبيثة ، حاولت تصوير الحركات الإسلامية بالرجعية تارة ، والحياة تارة أخرى ، والغوغائية والجهل ، ومحاولة تصويرها بأنها عدو للتراث الإنساني الحضاري ، ومعمول هدم للفنون والفكر .. بل وانحراف بالدين الصحيح عن مقاصده . ووجدت القوى المضادة للحركة الإسلامية بعض الحاقدين والطامعين من رجال الدين . فجندتهم لضرب الحركة الإسلامية بنفس أسلوبها . بحجة أن الدين ليس احتكاراً لأحد ، بل بحجة أنهم هم الحماة الرسميون للدين . وصدرت الفتاوى الغامضة ، والمقالات الطنانة في هذا السبيل .

ولم تقف الحركة الصليبية ، أو الفلسفة المادية ، أو الفكر المستورد المنحرف .. كلها لم تقف إزاء هذه الأحداث موقف المتفرج ، بل حاولت أن تعيد النظر في أمر الدين ككل ، وعادت لتردد شعارات فصل الدين عن الدولة ، مستغلة ما يجري على أرض الواقع ، بل وتماذى بعضها ، وأعلن شعارات الماركسية دون موارد ، وهكذا صودرت كلمات الفكر الإسلامي أو سجنّت أو شردت .

تلك هي الأسباب التي أراها تأزرت وفعلت فعلها في إبراز هذا الشعار الذي لم يكن له وجود في عصور الإسلام الأولى ، وهو شعار فصل الدين عن الدولة .. وعلى الرغم من أن المشكلة - كما قلت - لم يكن لها وجود في تاريخنا الإسلامي ، ولا في قاموسه السياسي ، إلا أنني أراني مضطراً لالقاء الضوء على الحياة الإسلامية الأولى مركزاً على الجانب السياسي فيها دون غيره ، حتى يكون الأمر أكثر وضوحاً وشمولاً ، فيما يدبر ضد فكرنا وتاريخنا من مؤامرات ، وحتى ندرك الخطأ الجسيم ، بل العصيان الواضح لمبادئ ديننا القويم ، ثم نرفع عقيرتنا وأقلامنا الحرة المؤمنة في مواجهة أعداء الحركة الإسلامية ، والكائدين لها ..

ماذا كان يملك النبي ﷺ

حينما بعث الله محمداً ﷺ ، لم يكن نبينا الكريم يملك غير الكلمة التي أنزلها الله عليه ، وبهذه الكلمة خرج إلى الناس ، ولم تكن سوى كلمة التوحيد ، أخذ يدعو الناس إليها سرّاً ثم

علانية ، وهذه الكلمة برغم بساطتها كانت تنطوي على حدث كبير ، فظن له حكام مكة ورجالاتها : إن تسفيه آلهتهم معناه تسفيه الأسس التي يقام عليها بنيانهم الاجتماعي والسياسي والأخلاقي . ان وجود حقيقة أخرى تخالف الحقيقة التي يؤمنون بها - إن صح التعبير - معناه أقول نجمة ، وانهميار مجدهم الأدبي والمادي .. ومن ثم طاردوا كلمات النبي المرسل ، وتنوعت هذه المطاردة .. من سخرية .. إلى تكذيب .. إلى رميه بالسحر والكهانة والجنون والمروق . ثم لما لم تنجح هذه الوسائل في مواجهة الدعوة الإلهية ، حاصروه ، وعذبوا أنصاره ، وقتلوه ، ودبروا لقتله ، وبذلك أصبحت الحرية في مكة مهدورة ، وكان لابد أن تكون للدعوة حرية التعبير ، وهذا حق انساني ، احتكره أولو المال والسلطان في مكة ، فهاجر الرسول إلى يثرب ومعه عدد من أنصاره ، فأصبح للمسلمين مجتمع خاص بهم ، وأصبح لهذا المجتمع سمات وأخلاقيات وقضايا متنوعة ، وأصبح لهذا المجتمع المسلم جيران هم اليهود والقبائل ، وكان أن عقدت الاتفاقات بين المسلمين وجيرانهم ، وهو ما يمكن أن يسمى : «تنظيم العلاقات الخارجية» إلى جانب العلاقات الداخلية في إطار المجتمع الإسلامي الجديد ، وقامت معارك حربية لا داعي لشرح ظروفها وأسبابها وأهدافها الآن ، وإنما الذي أريد أن أقوله هو أن محمداً ﷺ أقام أول حكومة في تاريخ الإسلام ، حكومة كاملة بما نحتاج إليه من شرائع ، ونظم وآداب وجيش وعدة ومال ، وعلاقات داخلية

وخارجية ، وهذه الحكومة تتلقى أوامر الوحي الالهي النازل على محمد ﷺ ، في شتى الشئون السياسية والعسكرية والاجتماعية والتعبدية ، في الميراث والزواج والقضايا المدنية والجنائية ، وما لم ينزل به وحي ، كان مآله إلى الشورى وتبادل الرأي بين النبي وأصحابه ، وعامة المسلمين وخاصتهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال لسردها ، وكذلك النصوص القرآنية وأحاديث الرسول وسيرته ...

كان المسلمون الأوائل يرون الصلاة والصوم والزكاة والحرب وقانونها ، والأسرى والغنائم وطريقة التعامل إزاءها ، ومعاقبة الجاني إن سرق أو قتل أو زنى ، ومحاسبة المستغل ، والمعاملة مع الجيران والمتعهدين .. كل هذا نسيج واحد محكم متلاحم ، ابتداء من الشعائر الفردية ، إلى القضايا الاجتماعية ، إلى السياسة الخارجية .. كل هذا النسيج هو الدين .. أو الإسلام ...

إن جزءاً من هذا نسميه بلغة عصرنا «السياسة» .. أو نظام الدولة ، والحاقدون يريدون أن يمزقوا هذا النسيج ، فيفصلوا بين الدين والدولة ، ويبتدعوا منها أموراً لم يكن لها وجود في مبادئ ديننا. الحنيف ..

حول خطاب أبي بكر

ان أبا بكر رضي الله عنه خاض حرباً مريرة ضد مانعي الزكاة . وقرر انه مستمر في الحرب ، حتى لو منعه «عقال

بغير « كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ ...

ونمت الحكومة وتطورت في عصر الرسول حتى امتدت إلى مكة وغيرها من بلاد العرب . وأرسل محمد الرسل إلى حكام ذلك الزمان في فارس والروم واليمن والحبشة وغيرها يدعوهم إلى الإسلام ..

ولما مات رسول الله ﷺ ، كانت المشكلة الخطيرة التي تشغل أذهان المسلمين هي الحاكم الذي يخلف الرسول ، ولا داعي هنا للاستطراد ، وإنما أقول بوضوح يدعمه البرهان والتاريخ ان أبا بكر اختير خليفة في ظل استفتاء شعبي حر عاصف ، في « سقيفة بني ساعدة » ، وامتدت الأيدي تبايعه طواعية لميزات ومواصفات خاصة رأوها فيه ، واعتبارات دينية رسخت في عقولهم وسلوكهم . وتربوا عليها مع رسول الله ﷺ .. وفي ظل القاعدة العريضة للشورى والحرية . ويبدلي أبو بكر ببيانه الأول قائلاً :

« ... لقد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن رأيتموني على حق فأعينوني . وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني . الصدق أمانة . والكذب خيانة .. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له .. أطيعوني ما أطعت الله فيكم : فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم .. » .

ومن خلال هذه الكلمات الواضحة الصريحة البسيطة تتضح

معالم الطريق العظيم الذي يسير أبو بكر بالمسلمين فيه إلى عالم الحق والخير والفضيلة ، عالم الحرية والاخاء والتقدم ، لا عالم الرجعية والجشع والكبت والاستغلال .

ولنا تعليقات مقتضبة على بعض فقرات هذه الخطبة القصيرة :

١ - يقر الحاكم الجديـد بأنه ليس أمير المسلمين ، وليس هذا مجرد تواضع نابع من انفعال مؤقت ، وإنما يرمي أبو بكر إلى أبعد من ذلك ، انه مجرد فرد منهم ، وقد لا يكون أفضلهم ، ومن ثم فهو مجرد بشر ليس « معصوماً » من الخطأ ، وليس ظلاً إلهياً على الأرض ، أو شخصية مقدسة لا ترد إليها كلمة أو يخالف لها رأي .

٢ - والحاكم الجديـد يطلب تأييد الأمة المطلق فيما يروونه حقاً (لا ما يراه هو) بل ويفرض عليهم نقده ومراجعته وتقويمه ان رأوا انه على باطل ، هذه أحكام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، وفي عصرنا الحديث نرى النقد في بعض المجتمعات جريمة ، وخيانة قد تودي بحياة صاحبها ، أو تقطع رزقه ، أو تشرد أسرته ، أو تحرمه حق المواطن ...

٣ - ويقرر الحاكم المسلم أن الخيانة هي الكذب ، وان الأمانة هي الصدق ، فالتقـد أو الرأي الحر أو التوجيه يجب أن يكون مبرأً من النفاق والمداهنة والرياء ، والتأييد الصحيح للتصرف السياسي السليم يجب أن يكون خالياً من شبهة المنفعة والمجاملة . ومثل هذه الخطوط الفكرية لم تتولد من بنات أفكار

أبي بكر صدقة ، وإنما هي وليدة الحياة الإسلامية وما بها من سلوك عملي ، ومبادئ باهرة منذ رافق محمداً ﷺ . :

٤ - يؤكد أبو بكر للجميع ، أن قوة القوي لن تمنعه من أخذ الحق منه ، وضعف الضعيف لن يكون مدعاة لغبنه وظلمه ، فالناس سواسية ، والعدل للجميع دون محاباة أو تفرقة ، لا دكتاتورية لحاكم أو قريب أو قوي ، ولا دكتاتورية لطبقة كثر عددها أو قل ، قويت شوكتها أو ضعفت .. ان شعار « الاخوة » هو الفلسفة التي تربط هذا البناء ، اخوة الحاكم للمحكوم ، وأخوة القوي للضعيف ، وأخوة الغني للفقير ، وأخوة السيد والخادم ، ولم تكن هذه الفلسفة كلمات مجردة عند التطبيق ، ولكنها كانت واقعاً عاشه المسلمون في ظل الإسلام الحنيف .

٥ - ثم يضع الضمان الأكبر والشعار العظيم الذي لا يكاد يصدقه عقل ، يقول أبو بكر :

« أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم » ، وطاعة الله بمي الالتزام بأوامره ونواهيه ، وتنفيذ أحكامه وشرائعه ، وتأدية فرائضه ومناسكه ... طاعة الله إذن هي الاستقامة ، والعدل بين الناس ، وقطع دابر الظلم والاستغلال والردائل . هي سيادة القانون الإلهي ، فان خرج الحاكم عن ذلك وجبت معصيته ، ووجب عزله .

تلك صورة من صور الإسلام في المجال السياسي ، لم

تكن هذه الصورة وليدة عبقرية رجل كأبي بكر ، وإنما هي ثمرة الدعوة الإسلامية ، وتعبير عنها في هذا المجال ، ولو فرض وجاء رجل على غير غرار أبي بكر ، لنبذه ذلك المجتمع ولرفضه بشدة ، فأبو بكر ابن بار للثقافة الجديدة والفكر الجديد ، والسلوك الإسلامي الفريد ، ولن يقبل مثل هذا المجتمع المسلم العظيم نشازاً ، يطمس القيم التي بذر محمد بذورها بين جنود دعوته .

والحق يقال ، ان أبا بكر كان عند وعده ، وكان عند حسن ظن المسلمين به ، فأدى الأمانة ، أمانة الحكم ، وبلغ الرسالة ... رسالة الإسلام خارج الجزيرة ، وحمى الدين ووحدته ووحدة أهله من الفتنة والغيرة والفساد .

أنا لا أقول قارنوا بين الأمس واليوم ، فإن الفرق شاسع وخيف ومحزن ، ولكنني أقول أية ضمانات قانونية توجد في أي قانون على سطح الأرض تماثل هذه الضمانات ؟

أنا لا أريد أن نمضي مع أغوار الحديث الشجي عن مجدنا الزاهر القديم ، ولا أرى أن الظروف تسمح بأن أمضي مع الحكومة الإسلامية في عهد عمر وعثمان وعلي ، والأمويين والعباسيين . وإنما أريد أن ألفت النظر إلى نقطة هامة ..

إن الحكومة الإسلامية التي قامت في ظل أسر معينة ، أو مذهبية بعينها . كل هذه الحكومات لم تكن لتفصل الدين عن الدولة ، ولم يجرؤ أحد أن يصرح بذلك ، بل لم يفكر فيه

مفكر . كانت تلك الحكومات قائمة على أساس ديني معين ،
تمذهبت به ، أو تشيعت له ، فمنهم من تشيع لأهل البيت .
ومنهم من اختار فرداً بعينه ، وأخلص لذريته ، متخذاً من الأدلة
الضعيفة ، والنصوص المخترعة ، سنداً له ، وأنا لا أناقش
صدق هذه الأدلة أو كذبها ، وإنما الذي يهمني الآن هو أن
كل هذه الحكومات والمذاهب والحركات قامت على
أساس ديني ، ولم يدر بخيال أحدهم في يوم من الأيام فصل
الدين عن الدولة ..

بل ان بعض المفكرين من المسلمين وضعوا أحكاماً وشروطاً
للحاكم المسلم تفصيلاً ، ونصوا على الحالات التي تجب فيها
معصيته ، ومحاربه حتى يتم عزله أو عقابه ، فعل ذلك بعض
الخواارج ، والعديد من مفكري الإسلام وفقهائه . ونظرة
في مؤلفات ابن تيمية وخاصة كتابه « السياسة الشرعية » ،
ومؤلفات الغزالي وابن حزم ، وأبي حنيفة والشافعي ، والذين
تناولوا بالتشريع والتقنين المال والأحوال الشخصية والعلاقات
الدولية وما إلى ذلك ، وما تغص به الكتب العديدة .. تكفي
لتأكيد ذلك .

ولم يكن الحاكم المسلم - تاريخياً وعقائدياً - من وطن
معين ، أو قبيلة بعينها ، وإنما كانت الخلافة تنتقل من الأمويين
إلى العباسيين ، من دمشق إلى بغداد ، ومن بغداد إلى القاهرة ،
ومن القاهرة إلى استامبول . فالمسلم أخو المسلم دون تفرقة
من لون أو جنس أو أرض ..

وكلمة أخيرة قصيرة أريد أن أقولها :

ان علماء المسلمين لم يقعوا فريسة هذا الزعم الخاص بفصل الدين عن الدولة ، بل لم يؤخذ هذا الافتراض الخاطيء مأخذ الجد إلا في عصرنا الحديث. ولقد كانت سيطرة الدين أو الشعور الديني على حركات التحرير الحديثة في العالم الإسلامي ، من مظاهر الرفض الأصيل لترعات الزيغ والاحاد والتشويه .. في مصر حمل علماء الأزهر ، وطلبة العلم فيه ، راية النضال ضد الغزو الفرنسي ، ومن خلفهم جماهير الشعب المؤمن . وثورة عرابي ونصوص خطبائها وزعمائها وصلة العلماء بها ، تؤكد نفس الحقيقة . ولما اندلعت ثورة ١٩١٩ ، كان مشعلوها ورائدوها رجال يؤمنون بدينهم وأمتهم ، وان استغلها المغرضون والمارقون .

وثورة الجيش الإسلامي في الهند ، وتضحيات العلماء في الجزائر والمغرب العربي ، وصيحات الافغاني والكواكبي ومحمد عبده ، وتصدرهم لقيادة جماهيرهم المؤمنة التي أولتهم ثقتها .. الخ .. كلها حركات تحريرية ، ترتبط بالتغيير ، ونظافة الحكم ، والتحرر من العسف والطغيان والمروق .

ان الذين يحاولون أن يزيفوا التاريخ ، ويطمسوا حقائقه الغالية ، والذين يتجاهلون الواقع ، وينسجون شباك التضليل لشعوبهم ، إنما يحرقون أنفسهم وأمتهم إلى الدمار والوبال . ولا أسوق هذا الكلام اعتباطاً ، وإنما أصرخ به والتجارب

المريرة ، والضياح الأليم والنتائج المخزية التي نجنيها ، إنما تؤكد بما لا يدع مجالا للشك صدق ما أقول ..

وأخيراً أجد أنه من الضروري أن نسجل بضع كلمات موجزة عن نظرية الحكم في الإسلام ..

دعائم النظام الاسلامي

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه « نظام الحياة في الإسلام » : التوحيد ، والرسالة والخلافة هي دعائم ثلاث يقوم عليها بناء نظام الإسلام السياسي —

فالتوحيد معناه أن الله تعالى هو الخالق لهذا العالم ومن فيه من بني آدم ، فهو ربهم ومالكهم ، وليس الحكم والسلطان والأمر والنهي إلا له وحده ، وهو مستأثر بالطاعة والعبودية ، ولا يشاركه فيهما أحد سواه .. هذا هو التوحيد ، وهو ينفي — كما ترى من شأنه — حاكمية البشر ، ويريد القضاء عليها قضاء مبرماً ، سواء أكانت هذه الحاكمية لفرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات ، أو بيت من البيوتات ، أو أمة من الأمم . الحاكمية لا يستحقها إلا الله وحده عز وجل ، فلا حاكم إلا الله ، ولا حكم إلا حكمه ، ولا قانون إلا قانونه .

أما الرسالة ، فهي الوسيلة التي يصل بها إلينا القانون الإلهي .. الكتاب والسنة ، ومجموع هذين الأصلين يسمى في

المصطلح الإسلامي « بالشرعية » ، فهذا من الدستور الأساسي الذي ينهض عليه صرح الأمة الإسلامية .

أما الخلافة فهي في لغة العرب تطلق على « النيابة » ، فمنزلة الإنسان في هذا الكون ، من الوجهة الإسلامية ، أنه خليفة الله ، أي نائب عنه في مملكته ، لا يتصرف فيها إلا طبقاً لحق الاستخلاف والتصرف الذي وهبه الله إياه .. إن الإسلام لا ينوط أمر هذه الخلافة بفرد من الأفراد ، أو بيت من البيوتات ، أو طبقة من الطبقات ، بل يفوض أمرها إلى جميع أفراد المجتمع الذي يؤمن بالمبادئ الأساسية من التوحيد والرسالة ويظهر كفاءته واستعداده ، للقيام بكل ما تنطوي عليه كلمة « الخلافة » وتقتضيه ، فإذا وجد في الدنيا مجتمع يتصف بهذه الصفات فلا ريب أنه جدير بالخلافة ، وإن هذا هو المقام الذي تنشأ فيه ، وتبتدىء منه فكرة الجمهورية في الإسلام ، فكل واحد من أفراد المجتمع الإسلامي له نصيب من الخلافة وحق في التمتع بها ..

إن نظرية الغرب السياسية تقول بحاكمية الجمهور ، والإسلام يقول بخلافة الجمهور .

إن حقوق الحكم والأمر في الجمهورية الغربية يستبد بها الجمهور ، وهم الذين يمتلكون ناصيتها ، فيسنون وينفذون في الأرض ما يشاؤون من القوانين والشرائع ، وإن قصارى ما تهدف إليه حكوماتهم ، إنما هو إرضاء عامة السكان

(الدولة) وجلب تأييدهم ، وقضاء مشيئتهم .

والاسلام بخلاف ذلك ، ليس الحكم والأمر فيه إلا لله وحده . فهو الذي يستأثر بحق وضع القانون والشرعية لعباده من غير مشارك ولا منازع ، أما الجمهور فليست منزلتهم في الإسلام كمنزلة الخلفاء الذين يضطرون بطبيعة منزلتهم أن يقتفوا آثار الشريعة الالهية ، التي جاء بها الرسول من عند ربهم ، ولا يحيدوا عنها قيد شعرة .. » .

إن توحيد الله والعبودية له وحده ، هي أساس ديننا ، والعبودية لله وحده ، إنما هي في حقيقتها تحطيم لكل ألوان الشرك ، والأوثان الزائفة ، وأعني بها عدم الخضوع للسلطة الظالمة مهما كان جبروتها ، وعدم الخضوع لسلطان المال مهما كان اغراؤه ، وعدم الاستسلام لمقدرات الشهوة مهما تعاظم أثرها . فالتوحيد خلاص من كل ألوان الشرك ، وتحرر من كل القيود التي تغل طاقة الإنسان الجبارة .

والرسالة هي القانون الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين ، والإيمان بها جزء لا يتجزأ من عقيدتنا ، وصدق الله العظيم إذ يقول لنبيه الكريم في محكم آياته :

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .

ويقول سبحانه وتعالى :

« وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم

أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فإن تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيراً من الناس لفاسقون » .

أما الخلافة ، في الدور الذي ناطه الله بالمؤمنين ، إذ استخلفهم في الأرض ، « اني جاعل في الأرض خليفة » ، واستخلفهم في المال « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، وحملهم أمانة الدعوة والعمل لها ، والعيش لها ، والجهاد في سبيلها حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ..

وإذا عدنا إلى حياة الرسول الأعظم ، وخلفائه من بعده ، لوجدنا أن سلوكهم وفعلهم وقولهم ، إنما كانت ترجمة عملية للعقيدة السمحاء التي أكرمنا الله بها :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً .. » صدق الله العظيم .

ان واجبنا أن نقف وقفة رشيدة أمام الأحداث الجسام التي تعصف بأممتنا ، وقفة متأنية يكون بعدها الاختبار ، أما أن نكون لله أو نكون لهوى الحياة الجارف .

فإن اخترنا الأولى ، واعتقد أننا جميعاً على عهدنا لله ولرسوله ، فلنقف موقف المسلم الحق إزاء تيارات الزيف والانحراف التي تبغي الاضرار بنا وبديننا وبمستقبل أجيالنا ، وروعة حضارتنا وتراثنا ..

ولنردد معاً قول شاعر الإسلام العظيم « اقبال » هذه الأبيات :

بلغت نهاية كل أرض خيلنا
وكان أبحرهما رمال البيد
في محفل الاكوان كان هلالنا
بالنصر أوضح من هلال العيد
في كل موقعة رفعنا راية
للمجد تعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا
إلا عبيداً في اسار عبيد
بلغت بنا الأجيال حرياتنا
من بعد أصفاد وذل قيود

حول الفن الاسلامي

« الفنون والاداب قد تكون نوعا
من الخمر او المخدر ، وقد تكون
غذاءً شهيئاً ... ونبعاً صافياً طاهراً » .

الحركة الاسلامية في حاجة إلى المزيد من الوعي والتكامل...
وأعني بالوعي الجهد المستمر الدائب في مجال الفهم والاثراء
الفكري . والاستفادة من التجارب المبررة التي خاضتها
وتخوضها ، وقد يقول قائل هذا أمر مفروغ منه ، أو تحصيل
حاصل . وإنما الحقيقة التي لا مرأى فيها ، أن رجال الدعوة
الإسلامية قد استدرجوا إلى معارك جانبية، وخلافات شخصية ،
استنفدت الكثير من جهدهم ، وأضاعت الكثير من وقتهم ،
وجرفتهم عن التفكير الهادئ ، والانفعال المتزن .

وأعني بالتكامل ، التوصل بشتى الأساليب قديمها وحديثها للوصول إلى عباد الله ، والاستفادة من تجارب العصر في المجالات النفسية والاعلامية والفنية ... فالدعاة إلى الإسلام في عصرنا لم يعطوا الفنون حقها في التأثير والتوجيه ، ولم يكونوا جادين في حمل عقيدتهم وكلماتهم على متن الفنون والآداب ، ولعل كثيرين من الدعاة المسلمين قد ساء رأيهم في الفنون وأصحابها لما تنضح به الفنون المعاصرة من دعاية ومجون واستهتار واثارة وضلال ، ولعل اليأس قد أصاب البعض الآخر نظراً لرواج هذه البضائع ، واقبال الجماهير الارعن عليها ، وجريه وراءها ، والبعض الآخر رأى أن الفنون داء وبيل ، وانه لا نجاة من شرها إلا بالبعد عنها ، ومقاطعتها ، وفرض حصار على ذويه حتى لا يتلوثوا بهذا المورد الموبوء ، ونسي أو تناسى أن هذه الألوان تطل عليه من النافذة ، وتواجهه في الشارع والمكتب ، وتتصدى له على صفحات المجلات والجرائد ، وتواجهه أبنائه في المدارس والجامعات ، وفي الاذاعات والتلفزيون ..

إن تكامل أدوات الدعوة الإسلامية في العصر الحديث لا يتم إلا بتطويع هذه الفنون والآداب ، وتطهيرها في يتابع القيم الإسلامية العريقة ، واعطائها ما تستحقه من الاهتمام والدواسة ، والتوصل بها - في أظهر أحوالها - إلى جماهير الناس ..

ان بضعة أمتار من التحرير تستطيع المرأة أن تصنع منها

ثوباً ضيقاً قصيراً ، يبرز مفاتنها ويجذب إليها العيون الفضولية ،
ويحيطها بجو من الاغراء والفساد ...

وان بضعة أمتار أخرى تستطيع امرأة ثانية أن تصنع منها
ثوباً محتشماً ، عليه سيماء الفضيلة والوقار ..

والفنون والآداب قد تكون نوعاً من الخمر أو المخدر ،
وتنضح بالإثم والفجور والانحلال .. وقد تكون غذاء شهياً ،
ونبعاً صافياً طاهراً ، وباعثة للقيم الفاضلة ، ومثيرة لما يكمن
في قلب الإنسان وعقله من خير وبر وجهاد ، ولساناً معبراً
لأشرف الدعوات وأقدسها .. الفن ليس غاية كما يزعم عبدة
الأصنام والخاللون .. الفن وسيلة لما هو أعظم ، وأداة في يد
الإنسان الحر الذي ينشد الخير للناس قاطبة ..

ولقد أصبح الفن في عصرنا الحديث أقوى أدوات التأثير ،
وأشدها خطراً ، ولكي تتكامل وسائل الدعوة الإسلامية ،
وتلبي احتياجات العصر ، وتتكلم مع ناسه بلغتهم ، فلا بد
من الاهتمام بالفنون .. والفن ليس خبثاً كله .

وفي هذه الدراسة الموجزة نتكلم عن الفنون والآداب في
ظل المفهوم الإسلامي ، ونتعرض لصلة الدين بالفن ، ودور
الفن في العصور الإسلامية الأولى ، وما تعرض له الأدب
العربي أو الإسلامي من محاولات للهدم والتدمير ..

ولتكن هذه الكلمات الموجزة شحذاً لهمم الفنانين والأدباء

المسلمين كي يشاركوا في هذا الجهد ، بالرأي وبالانتاج ،
لعلنا نستطيع أن نفتح الطريق أمام فن إسلامي أصيل .. والله
أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والرشاد ...

حول الفن الاسلامي

عالمنا الحديث يلزمنا بالتحديد ، وأجياله يريدون خطوطاً
واضحة المعالم ، ميسورة الفهم ، عميقة الاقناع ، كي تتقبلها
وتمشي على نهجها ، أو تنفعل بها ، وتتمثل مضامينها ، ليس
في مجال السياسة والاقتصاد والقانون والأوضاع الاجتماعية
فحسب ، بل في مجالات الفنون أيضاً ..

والحركات الإسلامية على ما يبدو قد أهملت جانب الفنون
في كثير من الأحيان ، فالتصفح لمجلاتها ونشراتها وصحفها
وكتبها ، يراها تركز على الجوانب العقائدية وحدها في مجال
البحث والدراسة ، وتشغل نفسها أكثر وأكثر بالرد على مناوئها
السياسيين ، والمفكرين المنحرفين ، وهذا في حد ذاته أمر
لا غبار عليه ، تفرضه ضروريات المعارك المتصلة بين الحركات
الإسلامية وأعدائها ، غير أن اغفال جانب الفن في اتون
ذلك الصراع الأزلي ، يجر إلى اضرار محققة ، وخسائر أكيدة ،
إذ ليست الدراسات وحدها ، أو البحوث المستفيضة وحدها ،

بقادرة على حمل لواء الدعوة ، فان أساليب الدعوة في عصرنا الحديث قد تنوعت وتعددت ، وأصبح الوصول إلى المتلقي ، أعني جماهير الناس ، فناً بذاته يحتاج إلى كثير من الخبرة والدراية ، والاقتصرت وسائلنا في الدعوة إلى الإسلام عن تأدية واجبها المقدس ، وأصبح اللوم الأكبر يقع على عاتقنا نحن ، ولا أقول اللوم فقط ، بل والوزر أيضاً ..

لقد أصبح الفن هو الحيز الأكبر في سياسة الاعلام ، وأصبحت المذاهب الفكرية والسياسية تقدم نفسها إلى الناس في أثواب الفنون المختلفة .

وهذه حقيقة لم يحفلها أجدادنا الكرام ، وهم يرفعون لواء الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ؟ ، كانت تواكب سلوكهم المميز ، وأخلاقهم الفريدة ، وكانت تسير جنباً إلى جنب مع مهارتهم الحربية ، وتفانيهم في الجهاد الأعظم وانطلاقهم إلى العالم في ظل العقائد والمثل التي يقرؤونها في كتاب الله ، وحديث نبيهم وسيرته ، فتشكل سلوكهم ، وتصيب كلماتهم بصبغتها . وقد يقول قائل ، إذا كان أجدادنا الأوائل في فجر الدعوة الإسلامية ، قد أدركوا هذه الحقيقة الهامة ، فأين هو تراثهم من المسرح والرواية والرسم وغيرها من الفنون ؟

لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن ندرك ، أن لكل عصر أسلوبه وفنه ، ولو كان في عصر الرعيل الأول اختراعات كالتلفزيون أو السينما أو الاذاعة لما تردد المسلمون في استعمالها .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرحب بكل جديد نافع حتى في كافة الشئون : لم يتردد في حفر « الخندق » حينما أشار به سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب ، وهو شيء لم يفعله العرب من قبل ، بل أضفى على سلمان الفارسي مجداً عظيماً حينما قال عنه « سلمان منا أهل البيت » .. ولم يتوان عليه السلام عن ابتكار أساليب جديدة في الحرب والسياسة ، بل ان الدعوة الإسلامية كلها ، كانت خروجاً عن كل القيم العفنة : والتقاليد الموروثة في حياة العرب ، مما جعل طريق الدعاة وعر المسالك ، مليئاً بالصعوبات والمشاق ، محتاجاً لكل جديد في العرض والأسلوب .

وكان الأدب آنذاك هو فن العصر سواء الشعر أو النثر ، كانت القصيدة أو الخطبة هي لسان الدعاة والمتحدثين ، وكان شاعر القبيلة أو خطيبها هو أعلامهم ذكراً ، يحوطونه بالرعاية والاكبار ، ويغدقون عليه المال والمتاع ، ويقدمونه على كل من عداه في المحافل والمسامر ، بل إن روائع القصائد كانت تعلق في أقدس مكان عرفه العرب ، وهو الكعبة ، وكانت كلمات الحكماء من العرب تحظى بقداسة لا مثيل لها .

وحينما جاء الإسلام لم يفرط في استخدام فنون العصر في بث دعوته ، والرد على أعدائه ، كان القرآن أول كل شيء قمة البيان ، وفخر الفصاحة والبلاغة ، معجزاً في شكله ومضمونه ، معبراً أصدق تعبير وأحسنه عن المبادئ الإلهية

التي بثها الله في كلماته ، ولم يستطع العرب ان يتحدثوا هذه الروعة الإلهية البيانة . انبهر أمامها الشعراء والفصحاء ، وخرجوا ساجدين . لم يكن القرآن نثراً ، ولم يكن شعراً ، ولكنه قرآن على حد تعبير الدكتور طه حسين . هذه الصورة الفريدة كان لها أعمق الأثر وأبلغه في نشر الدعوة وجذب الناس إليها . وامتلاً القرآن بقصص الأولين والآخرين ، بل ان فيه لوناً من القصص التاريخي ، يفوق بالتأكيد أحدث ألوان الفن القصصي والروائي ، مثل قصة يوسف وبلقيس ملكة سبأ ، وقصص بني اسرائيل ، وهي كثيرة ، وغيرها من قصص الاقوام والأنبياء المؤثرة البليغة ..

إذن كان القرآن ، بشكله الفني الرائع ، وألوانه التعبيرية العظيمة ، فتحاً في عالم التعبير والتأثير والإيحاء .

وشجع الرسول الشعراء - برغم انبهارهم أمام فصاحة القرآن وبلاغته - شجعهم على انشاد الشعر في المناسبات المختلفة والرد على خصوم الدعوة ، وتصوير الأيام الخالدة ، والمعارك الرائدة ، مما تذخر به كتب السيرة والغزوات .

لا أنكر أن العصور التالية قد جمدت على هذه الأشكال فترة غير قصيرة من الزمن ، لكنها فتحت الطريق أمام القصص الإسلامي ، والقصص الديني الذي كان يدبجه الوعاظ في المساجد ، ولم يتردد الأدب الإسلامي في قبول ألوان مبتكرة من القصص المترجمة عن الآداب الفارسية والهندية وغيرها ،

ولم يعقم الأدب الشعبي بدوره عن نسج آلامه وأحلامه في حكايات وأساطير جذابة اكتظت بها روايات السير الشعبية ، مثل سيف بن ذي يزن اليماني ، والأميرة ذات الهمة ، وأبي زيد الهلالي وغيرهم . ويلاحظ القارئ في تلك السير الشعبية امتزاجها بالتقاليد الإسلامية والقيم العربية الأصيلة ، متأثرة في روحها العامة بالنزعة الدينية ، ومعاداة الروح الصليبية الحاكمة ، مما لا يتسع المجال لذكره ، واختيار مقتطفات له ...

ولقد أثرت عوامل عدة في عدم تفوق فن الرسم والتصوير وعدم بزوغ عصر المسرح في مجال الفكر الإسلامي .

وأيا كان الأمر فإن دور الفن عموماً هو تشكيل الوجدان بما يبثه فيه من عطاءات فكرية وعاطفية .، وإذا كنا حريصين على تنمية وتبصير ما يسمى « بالوجدان الإسلامي » ، فلا بد من التوصل بألوان الفنون المختلفة من اذاعة وتلفزيون وسينما ومسرح وقصص ورسم ، بأساليبها الحديثة ، وقواعدها الفنية المتعارف عليها ، وان نساهم في اثراء هذه الفنون وتجديدها .

لم تعد القصيدة أو الخطبة وحدهما أداة للتبشير بالإسلام والدعوة إليه ، لقد استطاع « سارتر » الوجودي بقصصه ومسرحياته أن يؤثر في الملايين أكثر من أكبر قسيس في أوروبا ، بل شاع ذكره عن طريق مسرحياته أكثر مما شاع عن طريق فلسفته ، وإذا كان قراء البحوث أو الفلسفات قلة ، فإن مشاهدي الروايات السينمائية أو المسرحيات وقراء

الشعر والقصة يعدون بالملايين ، وليس أثقل على نفوس أجيالنا المعاصرة من الكلام المباشر ، والوعظ المجرد . ان محاضرة لعالم بارز لا يحضرها سوى بضع عشرات ، ولكن فيلماً سينمائياً مثل « كوفاديس » أو « المصارعون » ، يشاهده الملايين في شتى أنحاء المعمورة .. لا أريد أن أطيل في شرح هذه القضية البدئية ، ولكني أريد أن يسلم بها دعاة الحركة الإسلامية ، وأن يرصدوا لها من جهدهم ووقتهم ومالهم ما تستحقه من اهتمام ورعاية ، حتى يمكننا أن نصل إلى قلوب الناس وعقولهم بأحب الوسائل إليهم ، وأبعدها تأثيراً فيهم ، وأحدثها أسلوباً لديهم ..

وإذا كنا نريد أن نتصدى للركام الهائل من الفنون المنحرفة المدمرة ، التي تشيع الاباحية والاحاد والتمزق ، فلا يكفي الصراخ والكلمات المحمومة ، والخطب الهادرة ، وانما لا بد أن نواجه الفن المنحرف بفن أصيل ، قادر على أن يثبت في المعمة . بل لا بد أن نقدم البديل للناس . فهم لا يستطيعون أن يعيشوا في فراغ ، أو يرفضوا ببساطة وسائل الامتاع والتسلية التي تقدم لهم السم في الدسم ، لمجرد مقالة أو خطبة تؤكد لهم ان فيها ضرراً بالغاً على حضارتهم ومستقبلهم ، وفيها منافاة لمبادئ دينهم الخفيف ...

ولقد توهم بعض أدبائنا ونقادنا أن الأدب العربي القديم ، أعني الأدب الإسلامي بتعبير أدق ، كان أدب مدائح للملوك والأمراء ، وسجلاً للتفاني والمرائي والمجاء العنصري أو الشعبي

أو العقائدي أو الشخصي ، وأن القصيدة العربية مجرد قوالب جامدة ميتة .. هكذا يزعمون ..

والحق أنه افتراء محض يعوزه الدليل ، بل يكذبه الواقع والتاريخ .

لقد كان شعراؤنا أحراراً بمعنى الكلمة ، عبروا عن كل ما يحول في خواطرهم ، نحن نجد الشاعر الزاهد إلى جوار الشاعر الزنديق ، بل نجد الاثنين في شاعر واحد كأبي نواس ، ولقد بلغت الحرية ببعضهم أن تعرض لبعض القيم الدينية ، مما دعا بعض علماء الدين لرميه بالكفر والزندقة ، ولم يكن الاضطهاد قادراً على صرف الشعراء عن الادلاء برأيهم في أحلك أيام الظلم ، مما جعل بعضهم يضحى بحياته عن طيب خاطر ، من أجل نقد لحاكم ، أو مهاجمة لوضع فاسد ، أو تعرض لمن يتسترون بالدين ، ويرتكبون الحماقات .. والحق أن أبا العلاء المعري لعب دوراً بارزاً ، في عمق النقد وحرية الرأي ، وتطويع الفلسفة لبحور الشعر وأغراضه ، انه بلا شك عملاق من عمالقة الفكر الإسلامي الحر ، وهو في نفس الوقت مجدد عالمي في كتابه «رسالة الغفران» ، برغم القوالب الصعبة ، أو لزوم ما لا يلزم في شعره ، وهو نوع من الترف الفكري ، والتحدي بالإبداع والقدرة ، وتحدي انحرافات عصره وتحدي عاهته التي رمت به الأقدار ، وتحدي الكفاءات المتنوعة التي ذخر بها عصره ، ولولا ضيق المقام لكان لأبي العلاء مئات بل آلاف من الصفحات ، برغم كل ما يقال عنه .

ولقد كان بعض شعرائنا ملتزمين بكل معنى الكلمة ،
لقد نجح عدد كبير منهم من الارتزاق بالشعر ، أو السير في
موكب الحاكمين ، والتزم بقضية فكرية أو قضية سياسية معينة ،
نرى الشعراء المؤيدين لأهل البيت ، ونرى شعراء الخوارج ،
وغيرهم من الطوائف والمذاهب المختلفة ، ولست بصدد تأييد
مذهب على مذهب ، أو نصرة طائفة على طائفة وإنما يهمني
هنا وجود مجموعات كبيرة من الشعراء تتبنى رأياً ، أو تؤيد
فكرة ، محاولة أن تعطي مفاهيمها مسحة الإسلام الصحيح ،
وهؤلاء الشعراء الملتزمين قاسوا الكثير من الأهوال والتضحيات .
كانوا يناصرون فئة مطاردة ، أو زعيماً محكوماً عليه بالموت ،
وكانوا معبرين عن الشجاعة الحققة ، والرأي الحر دون خوف
أو ملل . رفضوا اغراءات الحكم والمال والسلطة ، ولم يرهبوا
الوعد والوعيد ، كانوا بالمصطلح الحديث « عقائديين » ،
وبالمصطلح الفني « ملتزمين » .

ونرى الشاعر كالمثني يخاصم أميراً كسيف الدولة
الحمداني ، ويهاجر إلى مصر ، ويحمل راية النقد والتحدي ،
فاذا ما تبين حياة الزيف والانحراف لدى « كافور » حاكم
مصر انقلب عليه ، وهاجمه بكل عنف وشدة ، وأتى بآيات
الابداع في رضاه وسخطه ، في حبه وكراهيته ، كان معبراً
عن ذات نفسه ، وعن آلام المخاض في مجتمعه ، وعن تعبه
لكل فساد سياسي أو أخلاقي .

وفي شعرنا القديم تراث عاطفي ضخم ، تناول أدق

مشاعر الإنسان ، وعلاقات الحب والكراهية ، والفراق والهجران
والظلم الروحي ، معطياً صوراً حية لبيئات ومجتمعات متباينة ،
وما تذخر به من تقاليد وقيم وصراع .

وفي شعر التصوف ومضات مذهلة تشهد بعلو قدره ،
وعمق نبهه ، وغوصه إلى أبعاد النفس ، والفكر والوجدان ،
واليقين .

وواكب شعر الطبيعة والوصف متميزاً بشتى الصور
والروى وأعطى قدرات باهرة في مصر والأندلس والمغرب
والحجاز ، ودمشق وبغداد وفارس والهند وغيرها .

ولم يكن شعر الوصف والعاطفة وقفاً على الوصف الظاهري
والمشاهد العيانية ، وإنما امتزج بنفس الشاعر ، وأبان عن
همومه وأحلامه وآلامه ، فانعكست في شعره ، وفاضت
بالإحساسات المختلفة .

ولم يكن شعرنا القديم مفتقداً للوحدة العضوية للقصيدة
دائماً ، ففي كثير منه ارتباط وثيق ، متنوع الأساليب ، متصل
الحلقات ، ومن الظلم الفادح أن يوصم ذلك التراث كله
بافتقاده لوحدة القصيدة ، وترابط أجزائها .

وذخر شعرنا وأدبنا عامة باللمحات النفسية العميقة ، وكان
هذا أوضح ما يكون في شعر الحب العذري ، والتصوف
والخلافات السياسية .

وليس خافياً أن آدابنا القديمة قد ارتبطت بقضايا عصرها ،

فصورت ما نشب من حروب ، وما تواتر على الأمة من نكبات ،
سواء إبان الخلافات الطائفية والمذهبية الدامية ، أو في الغارات
الكاسحة من تترية ومغولية وصليبية ، وفن كقطع الليل ،
ولم يغفل جانب الحياة الاجتماعية ، بما فيها من رغد وسعادة ،
وما فيها من بذخ ولهو ، وما يكتنفها أحياناً أخرى من فقر
وظلم وضياح ، ولقد - اصطبغت معاركهم - كما صورها
الشعر - بصبغة الدين ، وارتبطت بقيمه وهذا هو المهم ،
يقول شاعر ، وهو يخوض المعمة الضارية :

أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال و يحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم
على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً
فما نيل الخلود بمستطاع

وأرى أن شاعراً كهذا أصدق تعبيراً ، وأقرب إلى نفوسنا
من عشرات القصائد التي تنشد في معركتنا اليوم مع إسرائيل ،
والشاعر لا ينكر هنا خوفه كبشر ، وحرصه على الحياة كإنسان ،
لكنه يناقش نفسه نقاشاً قوياً مقنعاً ، عن الأجل الذي لن يطيله
الحرص ، وعن الخلود الذي لا وجود له ، مستهلاً تعابيره
وقيمه من صلب العقيدة التي يؤمن بها . وما أقوى قول الشاعر
محذراً ومنذراً وناقداً :

بني أمية هبوا طسال نومكم
إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الزق والعود

ولا يقف الشعر صامتاً والأندلس يتهددها الفناء ، والفرنجة
يحيطون بها من كل جانب بل يصرخ في لوعة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً
إن الطريق إلى منجاةها درسا

ولا ينكر شعرنا القديم ، تفرغ فئة من شعرائه لمدح الملوك
والعظماء ، فمثل هؤلاء الشعراء موجودون في كل عصر ،
نراهم في ركاب كل حاكم من الحكام ، يتوجونه بالأناشيد
ويحلون صدور صحفه بالأماديح ، ويعادون من يعادي ،
ويصادقون من يصادق ، ومثل هذه الآفات التي لا يخلو
منها عصر من العصور ، لا يمكن أن تتخذ مقياساً للتراث
كله ، ففي ذلك غبن وسوء نية ، وهؤلاء الفنانون المنحرفون
ليسوا فنانيين بالمعنى الحقيقي للكلمة ، وإنما هم مجندون لولي
النعمة ، أو مساقون بسياط الرهبة والوعد والوعيد ..

إن خطأنا الأكبر هو أن نطلب من أدبنا القديم أن
يعبر عن عصرنا الحالي ، وهو تعسف يشبه تماماً من يطلب
من أدبنا الحديث أن يعبر عن واقعنا بعد ألف عام مثلاً ،
والفن مرآة عصره ، يفعل بما هو واقع ، أو يمتزج بالقيم

والعقائد التي آمن أو يؤمن به الناس ، والفن قد يجمع في طياته التعبير عن آلام الناس وآمالهم ، فهو رفيق وهو قائد ، وهو مكتشف شديد الحساسية لما ينبض به المستقبل القريب ، وهو أمين على التراث الإنساني الأصيل ، وهو ناقد ومجدد يرتاد التجارب ، ويغذي وجدان الإنسان على مر العصور ، بالأشواق الملائمة .. وإذا كان الشكل الفني قد أصابه شيء من الجمود ، فإنه كان دائماً حي المضامين ، متوتر النبضات ، حاد الانفعال ، باهر الإيحاء ، وحينما وجدت الفرصة لظهور أشكال جديدة كالمرسح أو الرواية أو القصة القصيرة والتمثيلية التليفزيونية أو الإذاعية ، استطاع أن يقدم روائعه ، برغم ما كمن فيها من مروق فكري ، وخداع عقائدي ، وتوجيه سيء .

نخلص من هذا كله إلى أن الأدب الإسلامي القديم ، لم يكن بالصورة التي حاول المغرضون والحاقدون تصويره بها ، ولم يكن أدباً هروبياً خائناً لقضايا التاريخ والإنسان ، ولم يقصر جهوده على الأماديخ والقوالب المصبوبة ، لم يكن عبداً مطيعاً للسادة والحاكمين ، بل تمرد ونقد وحارب وخاض المعركة شجاعاً وتحمل تبعه هذه الشجاعة ، وضحى الأدباء بحياتهم أحياناً من أجل القيم العليا التي آمنوا بها .

ولقد وجد في عصر واحد آداب عدة ، لكل نوع مسحته المحلية ، في الحضر أو البادية ، في المشرق أو المغرب ، في هذا القطر أو ذاك من أقطار الإسلام . وفي هذا انصياع للتصدق الفني ، والتعبير الذاتي . ورغم هذا التباين إلا أن أقلام الشعراء

كانت تنعمس في النبع الفياض الذي يعمر بأعجاد الإسلام ،
وصفحات النضال المؤمن . كان معبراً في غزلياته وأماذيجه
وزهدياته وخمرياته وعذرياته ، كانت صورته حية للعصور المتعاقبة
برغم علوه أحياناً وإسفافه أحياناً أخرى ..

والآن ما هي الخطوط العامة لما يمكن أن يسمى أدباً إسلامياً؟
لقد قلنا في البداية أن علمنا يطالب مفكره دائماً بالتحديد
والوضوح ، وأن أجيالنا إذا ما أصابت قدراً وفيراً من الاقتناع
إستطاعت أن تقود خطى التحول إلى الأفضل ، وأن تمسك
من جديد براية « الخلاص » والريادة ، ذلك الدور الذي
قرره الله لها ..

إن الأمر يكتنفه قدر من الصعوبة والعسر ، ومن ثم فإن
المجال يجب أن يرتاده كل من يجد لديه الكفاءة في إلقاء
الضوء على هذا الأمر ، الذي نحاول عرضه في إطار الوثبات
الفنية التي سادت فنوننا المعاصرة ..

وسبق أن تناولت هذا السؤال بالإجابة في بعض المقالات
الإذاعية أو الصحفية ، وفي كتابي « الإسلامية والمذاهب
الأدبية » وتناوله عدد آخر من الكتاب أذكر منهم صاحب
كتاب « منهج الفن الإسلامي »

ومن حسن الحظ أن الإسلام لم يحدد « شكلاً » فنياً معيناً
يلزمنا به ، بحيث ندور في إطاره ، فلا نتعدى رسومه ، وإنما

حدد الإسلام « المضمون » أو الفكر الذي يتناوله الفنان في الشكل الذي يختاره .

لذلك نحن لا نختلف مع مؤلف « منهج الفن الإسلامي » حينما قرر أن الفن الإسلامي هو تعبير في عن الكون والإنسان والحياة من خلال تصور إسلامي ، فللإسلام نظرة خاصة لهذه الأشياء كلها ، ولعلاقاتها وصراعاتها ، وصلاتها بالإنسان المسلم فالإنسان سيد الكون والمخلوقات ، وبالتالي فالمخلوقات من حيوان وجماد مسخرة لهذا الإنسان، وخلافة الإنسان في الأرض تجعل منه السيد المتصرف في هذه الكائنات والمخلوقات في الحدود التي رسمها الدين . والطبيعة في نظر المسلم مشاهد ومشاهد الجمال ، ومصدر من مصادر التأمل والاستفادة والاستمتاع وليست إلهاً يعبد ويرتل حوله الترانيم والطقوس التعبدية ..

والإسلام يختلف عن غيره من الفلسفات الإنسانية ، فمن الفلسفات من يرى أن الإنسان طبيعته الشر ، وأن الأصل في الحياة الكذب والنفاق والجبن ، حتى قيم الشجاعة والكرم والصدق ما هي إلا رياء ونفاق ، وأنها تخفي خلفها أضدادها ، هذا واضح في « الواقعية السوداء » كما يسمونها ، وهناك فلسفات أخرى ، لا تضع الإنسان موضع السيادة فحسب ، بل تجعل منه إلهاً بذاته ، منه وحده تنبع كل القيم والمبادئ ، وهو حر في تصرفه ، لا يربطه بهذا العالم إزاء هذه الحرية المطلقة. الا تحمل المسئولية ، كما يرى « الوجوديون » ، وفي ذلك ضرب من الأثانية والتعالي والتعبد على كل دين وقيمة ،

بل رفض لكل القيم القديمة إطلاقاً ..

ومن الفلاسفة ، من يرى أن الفن غاية في حد ذاته ،
وليس وسيلة لبلوغ أي هدف ، وهم دعاة « الفن للفن » .
وهكذا تتباعد مفاهيم المذاهب الفنية والأدبية ، وتتصادم .
أما الفنان المسلم فله فهمه الشامل للحياة والإنسان وله إيمانه
بأن الفن وسيلة .. أجل الفن وسيلة لبلوغ غاية عظمى ، ألا
وهي تكوين « الوجدان » المتشبع بروح الحق والخير والحب ،
أو بمعنى آخر تشكيل الوجدان الذي يرتبط بإله الكون تلقياً
وعطاء ، في ظل القيم الإلهية التي جاء بها الأنبياء ، والتي
تبلورت في الرسالة الأخيرة إلى الأرض ، رسالة محمد بن عبد الله
ﷺ التي هيمنت على الرسالات الأولى ..

إن أدباً هذا شأنه يفتح الطريق لخلق الأمة المسلمة والضمير
المسلم ، وبالتالي يفرض قيماً ، أعني يوحى بهذه القيم إلى
الفرد والمجتمع ، وما الفرد إلا جزء من المجتمع ، جزء متميز
له أحاسيسه ومشاعره وحريته ، في الإطار العام ، وله علاقاته
الواضحة مع هذا المجتمع ، دونما تصادم أو استعباد ، أو
إذابة لشخصية الفرد ، أو إهدار لقيم ذلك المجتمع .

من هنا يتضح أمر هام وخطير ، ألا وهو علاقة الدين
بالفن ، فرى أن الدين جاء لتنظيم حياة البشر ، وإقامتها على
أصول ثابتة واقعية منظمة تحمي ذلك الكيان العام ، وتفتح
الطريق لنموه المستمر ، وتخلق فيه الحوافز البناءة ، وتمده

بالأمل ، وتثيرة إلى العمل والإنتاج ، وتحقيق السعادة الدنيوية الحقيقية التي تؤدي بدورها إلى السعادة الأخروية ، وتمد المؤمنين بالشوق إلى الاكتشاف وارتياح المجهول .

والفن هو تعبير عن الكون والحياة والإنسان من خلال التصور الديني ، لكأن الفن جزء من الدين ، أو نبض من نبضاته أو موج بقيمه وروحه ، من أجل السعادة المشار إليها . لا تعارض إذن بين الدين والفن في ظل المفاهيم الإسلامية ، ولا سبب إذن — بالنسبة للفنان المسلم — لذلك الخصام التقليدي بين الفن والدين .

والفنان المسلم واقعي بطبعه ، ومثالي بطبعه أيضاً ..
كيف ؟

الفنان المسلم واقعي لأنه يواجه قضايا مجتمعه وعصره ويتأثر ويؤثر ويساهم في حلها ، بالتفسير أو التعبير ، وبالتغيير أيضاً ، ويكشف عن جذورها ومسارها ومآلها . ذلك شأن الفنان المسلم منذ بداية فجر الدعوة . كان مناضلاً بالكلمة وبالسيف ، مخضعاً تصوراتهِ لما تشرب من نبع النبوة . وليس هناك من دليل سوى حركة التغيير الكبير في الفكر والسياسة والقيم الاجتماعية والعقيدة الإلهية التي واكبت ركب النبي العربي وأصحابه .

والفنان المسلم مثالي بطبعه ..

أجل .. لأنه يحلم دائماً - ولا بد أن يحلم - بالصورة المثالية التي يجب أن يكون عليها المجتمع ، ويحلم بالمثل العليا التي تشرها على يد معلمه الأكبر ..

إنه يحلم بواقع أروع وأجمل .. فهو آمل دائماً .. متجدد دائماً .. عيناه إلى الأمام .. وقلبه متعلق بالنماذج البشرية المثالية الرائدة التي تخدم دائماً قضية الإنسان ، والتقدم البشري ، والتفوق الحضاري . يحلم بحياة أفضل ، وبعالم يسوده الاخاء والحب والرفاه والعدل والكفاية .

فليكن شعره ومسرحه وقصصه موحية بهذه القيم والآمال ، ولتكن تعبيراً فنياً أصيلاً عن تلك الأحلام والأمانى ، متخذاً شتى الأشكال الفنية المتطورة أو المعاصرة ، منقحاً فيها ، مساهماً في إثرائها .

ويجربنا هذا إلى تأكيد التزام الفنان المسلم ، والالتزام غير الإلزام ، فالإلزام خال من الحرية وموثر بالسلب في روعة التعبير ، وصدقه الفني والفكري ، الفنان المسلم ملتزم بالقيم الجمالية التي توافق مزاجه ، وملتزم بالمضمون الإسلامي الذي شكل هواه ، ومازج عقيدته ، وانسكب في روحه . ويوم يسير الفنان المسلم في ركب حاكم منحرف أو شعار مفروض ، تحت الوعد أو الوعيد ، يخرج من دائرة الالتزام إلى دائرة الإلزام ..

وقد يتساءل سائل ، هل معنى ذلك أن تسود الجدية ،

وتتعدم المتعة والتسلية وهي أهم سمة من سمات الفن عامة ؟
والحق أن الفن الأصيل ، الذي يراعي القواعد الفنية
المتعارف عليها ، هو فن ثري بالإمتاع والتسلية .. وإلا لما
صح أن نسميه فناً ، إن سيادة مضمون ما على التعبير الفني ،
لا يعني مثلاً سلب التشويق والجذب والاندماج في مسرحية
من المسرحيات ، ولا يعني أبداً تحطيم بناء الرواية وما فيها
من حوار غني ، وشخصيات متنوعة ، وأحداث متأزمة ..
والفن الإسلامي لا يختار نماذج من أمثلة الخير والحب
والفضيلة وحدها بل يقدم شتى النماذج خيراًها وشريرها ، عاليها
وسافلها ، وإلا انعدمت الحركة الفنية ، والصراع النفسي ،
إنها معاناة أصيلة نابضة ، إنها تحرك الإثارة والتعريض ، وتوقظ
هاجع الفكر بالنسبة للمتلقي ، وتبعث في نفسه لونا من ألوان
« القلق » العظيم ، وتحرمه الرضوخ للكسل والسلبية والأنانية ،
إنها تجر المتلقي للمشاركة والحركة ، والاستجابة بالقول والعمل .
وهذا هو الفن العظيم ...

وفي ذلك متعة بالغة ، وتسلية لا شك فيها في نفس الوقت .
وما موقف الفنان أو الأديب المسلم من الآفات الاجتماعية؟
مشكلة الفقر مثلاً :

هل إذا كتب أديب قصة أو مسرحية عن مأساة الفقر
بالنسبة لفرد أو مجتمع ، أتكون هذه القصة أو المسرحية أدباً
إسلامياً ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال ، يجب أن ندرك أن الفن الإسلامي ، ليس بالضرورة هو الفن الذي يردد كلمة إسلام أو مسلمين أو الله أو محمد بالضرورة ، وليس هو الفن الذي يكتظ بالأحاديث النبوية أو الآيات القرآنية ، أو شواهد الشعر ، إن العبرة ليست بالشعارات أو الألفاظ الخاصة ، أو التعبير المباشر . . .

إن للأدب إيجاء .. وله نكهة خاصة .. العبرة بما يثور في نفس المتلقي من إنفعالات واستثارات وروح خاصة .. وأشواق معينة ، فاذا استطاع الأديب المسلم أن يكون إبحاؤه ذا مذاق خاص أو نكهة معينة لدى المتلقي ، فإن هذا هو المطلوب وللتوضيح نضرب لذلك مثلاً .. قد يكتب كاتب مسرحية عن الفقر فيكون إبحاؤها للمتلقي مزيجاً من الحقد المدمر ، والكراهية العمياء للناس والمجتمع ، ويكون إبحاؤها سخطاً على الحياة والمثل وكل القيم سواء أكانت سياسية أو دينية ، وقد يكون ذلك الإيجاء بالنسبة للمتلقي دافعاً له إلى الانحراف والخطيئة ، كأن يقتل أو يسرق أو يتحلل من كل الروابط الاجتماعية والدينية والإخلاقية .

وقد يكتب كاتب آخر مسرحية عن نفس المشكلة ، فتثير في نفس المتلقي الألم والإحساس بالظلم والرغبة في التغيير ، فلا يلجأ إلى الجريمة أو التدمير ، بل ينطلق في وعي و يقين مستمداً من القيم الفاضلة ، ليحاول التغيير بكل ما أوتي من قوة ، في إطار من التفضيلة والخوف من الله ، دون جنوح

إلى الحقد الأسود ، والعنف الأحمر ...
ذلك هو الفرق بين الحالتين ، وأرجو أن يكون واضحاً .
ولو اتسع المقام لقدمت للقارئ أمثلة من المسرح أو القصة
أو الشعر في مثل هذا المجال ..

ولنجب بعد ذلك على السؤال الذي طرحناه آنفاً :
نعم .. أي أدب يتعرض لآفة من آفات المجتمع كالفقر
أو الجهل أو المرض أو الكراهية أو التمزق الاجتماعي ، أو
الانحلال الفردي ، إنما هو أدب إسلامي بشرط أن يكون
الإيحاء لدى المتلقي ، واستجابته لهذا النوع من الفن أو الأدب
استجابة مرتبطة بروح الدين الإسلامي وقيمه الأصيلة العظيمة ..
ولا يظن ظان أن الإسلام في مجال التنظيم الاقتصادي إنما
يهادن المستغلين والأثرياء ، باسم حق الملكية المطلق ، فإن
الخلل الاقتصادي قد عالجته الإسلام بروح عالية من الكفاءة
والعدل منذ مئات السنين ، وقد يشتط بنا الحديث إذا ما دخلنا
في تفصيل أمر كهذا ، ويكفي أن أشير إلى كثير من الكتب
المتخصصة التي عابجت هذا الأمر بما فيه الإقناع والكفاية .
وقد يظن ظان أن الفن الإسلامي سوف يسدل ستاراً من
الصمت والتجاهل إزاء حيز من حياة الإنسان الكبرى الممتدة ،
وهو جانب الغرائز ، وفي اعتقادي أن المجتمع الإسلامي الأول
قابل كل ذلك بشجاعة منقطعة النظير ، وتصدى لها في وضوح
باهر على أساس من فهمه لطبائع البشر ، وما يعتمل في نفوسهم
من نوازع وانفعالات وغرائز ، فالمشكلة الجنسية مثلاً في

نظر الدين علاجها يتركز في أشياء كثيرة منها الزواج ،
والقضاء على وسائل الإثارة من عري وخلوات وغير ذلك ،
ورأى النبي أن ذلك كله قد لا يكون غير متيسر أو قد لا
يعالج المشكلة ، فدعا إلى الصوم مثلاً ، إلى جانب ما يفرضه
على الحاكم من توفير العمل والرزق لمن ضاقت في وجهه
روافد الحياة ، ومساعدته في بناء حياة مستقرة تكفل له الطعام
والشراب والمسكن والملبس والزوجة ..

كما دعا إلى تيسير أمر الزواج ، فيما يتعلق بالمهور ،
حتى سمعنا أن المهر أو الصداق الذي قدمه أحد فقراء المسلمين
لعروسه هو حفظه لكتاب الله حسبما أشار عليه الرسول .
وغير ذلك كثير .. وواضح أن الإسلام يحاول جاهداً أن
يجد حلاً نظيفاً لهذه المشكلة ، وفي نفس الوقت يحاول التسامي
بهذه الغرائز وتهذيبها وكبح جماحها بالوسائل المختلفة حتى
يتيسر لها في الوقت المناسب أن تؤدي دورها في بناء الحياة
على أسس سليمة .

وقد رأت بعض الدول الأوربية ، أو بعض علماء النفس
فيها ، أن حل المشكلة الجنسية هو بإطلاقها على عواهنها ، وترك
الحرية الجنسية للنساء والرجال ، وأمامي الآن تقرير علمي
كامل كتبته إحدى المجلات الغربية «الجنسية» ، تقرر فيه
أن إطلاق الحرية الجنسية وإباحة الخمور لم يحل المشكلة (هكذا
يقول) ، وإنما زاد من الملل والعقد النفسية والانهيارات العصبية ،
وجر إلى كوارث اجتماعية واقتصادية وأخلاقية غايصة في

الخطورة . هكذا تقول مجلة الجنس .. التي تزين صفحاتها
وغلافها بالصور الخلية والعارية .. المأساة .. ان الكثيرين
قد يضيقون ببعض الحدود والآداب التي يضعها الدين لحماية
المجتمع ، وحفظ الغرائز وتهذيبها ، فيختارون الطريق الأقصر
والأسهل ، لكنهم في النهاية لا يبلغون الفردوس المنشود ،
وإنما يصطدمون في نهاية الطريق بالخيبة والضياع والفشل ..
وما نراه من « أدب معاصر » إنما يعبر تعبيراً صادقاً عن تلك
النكبة .. إن بدع « اللامعقول » ، وضلالات « اللاانتماء » ،
وخرافات الوجودية ، ما هي إلا تصوير لتشنجات المهستيريا ،
ونوبات اليأس والتفرد والخوف والضياع التي أصابت المجتمعات
الحديثة .

ومشاكل العالم المعاصر التي تهدد الكيان البشري بالدمار
والفناء ، هي نتاج التفسخ الأخلاقي والعقدي في ذلك العالم .

نعود ونقول : ان الفن الإسلامي لا يتجاهل الغرائز ، أو
يسدل عليها ستاراً من التجاهل أو النسيان المفتعل ، وإنما يقف
إزاء هذه الغرائز بما هي أهل له من الفهم والمعالجة ، وليس
هذا غريباً ، فإن كثيراً من علماء النفس المحدثين يؤيد هذه
الفكرة ، ويدعمها بالدراسات الطويلة والإحصاءات المختلفة ..

والفن الإسلامي قادر على أن يخوض غمار هذه المشاكل
دون خوف أو خجل ، في إطار فني معين ، ضمنه مضمون
واضح نابع من القيم الإسلامية العليا .

وعالم الفن الإسلامي عالم فسيح رحب ، يستوعب التجارب
الاسطورية والتاريخية والواقعية المعاصرة ، ويجول في أنحاء
الشرق والغرب ، ويرز التجارب المحلية والعالمية ، ويرتبط
بقضايا الإنسان عامة وقضايا المسلمين في شتى أنحاء المعمورة
خاصة .

إن الرباط العقيدي بين دول الإسلام قاطبة يجب أن يكون
له حيز كبير من اهتمامات الفن والفكر الإسلامي ، وأن
يحارب التقوقع والشعبوية العنصرية ، ويحارب شتى ألوان التمزق
بين هذه الأوطان .. ليكون شعاره أمة واحدة برغم الخلافات
والحدود والألوان والأجناس. على الفن الإسلامي أن يربي في
ضمير الفرد المسلم المسئولية الكبرى تجاه الوطن الأصغر وتجاه
الأمة الإسلامية الكبرى ، واستيعاب مشاكل هذه الأمة وهمومها
وتطلعاتها ، وتغذية الصلات الأخوية بينها بروافد الحياة والقوة ،
تجارب الفنان المسلم تمتد من الفرد الواحد إلى العالم بأسره ،
وتستوعب عديد التجارب ، واكتشافات العصر العلمية والفنية ،
وتقف أصيلة متميزة بسعتها واتجاهها وحريتها ، واحتوائها
لعناصر الحب والخير والجمال .

الفنان المسلم يجب أن يدعم وعيه بالمتابعة والعلم والتفتح
والإخلاص والصدق ، وأن يمنع ذاته من الذوبان والتبع
والسقوط في كل الظروف ، وفي أي مكان ، وأن يفتح عقله
وقلبه لتجارب الإنسان كي يفرزها ، ويستفيد منها ، وأن
يكون نشطاً متجدداً حراً قادراً ..

وبذلك يصبح الفنان المسلم كما يقول « إقبال » شاعر
الإسلام العظيم :

إنما « الكافر » حيران له الآفاق تيه
وأرى « المؤمن » كونا تاهت الأكوان فيه

هذه بعض الأفكار عن الفن الإسلامي ، حاولت جاهداً
أن أضعها في إطار شبه محدد ، وأن ألمس أهم الجوانب المتعلقة
بهذه القضية الحساسة ، داعياً مرة أخرى مفكرينا والمهتمين بشئون
الفن والدين والفكر عموماً ، كي يعالجوا الأمر بما لديهم من
خبرات وأن يزيده ثراء ونماء وفهماً ..

والله أسأل أن يجنبنا الزلل ، ويعصمنا من الخطأ ، ويغفر
لنا هفواتنا وما قد نكون قد وقعنا فيه من خطأ غير مقصود ..

الانتماء .. والالتزام

« إن الخطر لا يكمن في السلاح
الحديث الذي يمتلكه الأعداء
بقدر ما يكمن في الخراب
الفكري والعقائدي الذي يطلقه
العلو... »

ما أكثر الورق الذي تسود صفحاته كل ساعة ، وما
أكثر الكلمات التي تقال وتنشر ، تحولت « هيبة » الكلمة إلى
ابتذال وعبث . سقطت المسئولية التي تحملها الحروف فضاء
الشباب وسط ركام من النظريات والفلسفات الأخلاقية والسياسية ،
ولذا لم يكن غريباً أن يظهر مذهب جديد اسمه « اللا متيحي » ..

ظهرت هذه البدعة ، ليتشبث بها الضائعون والتأهون .. ولكي يتأصل الخداع في ضمائرهم وعقولهم اسموها « فلسفة » .. وهي في الحقيقة لا شيء .. انها لا ترمز إلا إلى الانعتاق من كل مسئوليات العقائد ، والانفلات من كل القيم ، ولا أقول أنها استمسك بالذاتية أو الفردية أو الهوى الشخصي ، فالذاتية فلسفة .. لكنها — أعني فلسفة « اللا انتماء » — هي الانطلاق المجنون .. أو الفصام كما يقول علماء النفس .. كسائق سيارة ينطلق دون التقيد بشارات المرور ، لا يعبأ أكانت حمراء أم صفراء أم خضراء .. يقتحم الأرصفة ، أو يصطدم بالمشاة والبيوت .. والأشجار وسيارات الآخرين ..

الغريب أن المروجين لهذه الفلسفة يسمونها « موقفاً » .. وأحياناً يدعونها .. وجودية .. وتعبيراً عن الذات .. بل ويحاولون أن يضعوها لها القواعد والأصول .. انها أشياء مضحكة في حقيقتها .. ويتحدثون عن الالتزام وهي نقيض الالتزام على طول الخط .. وقد تكون لهذه « البدع » الفكرية في أوروبا ما يبررها ، لكن في الشرق المستعبد الممزق التائه ، يلتقطونها ويروجون لها ، ويتخذونها ديناً جديداً ، فيسقطون في خطر داهم ، وفناء محتم ، ان الخطر المهدق بالأمة الإسلامية ، لا يكمن في السلاح الحديث الذي يمتلكه الأعداء ، أو الطائرات التي ترتبص بها وتخترق حاجز الصوت ، أو التفوق التكنولوجي أو الالكتروني الذي يحيط بها من كل جانب ، بقدر ما يكمن في الخراب الفكري والعقائدي الذي يطلقه العدو . فيعمل فينا عمله بأخبث الوسائل

وينفث شروره وسمومه ، ويطمس معالم الطريق أمام أجيالنا ..
ومن هنا جاءت الهزيمة .. وحلت النكبة .. واسودّت صفحات
التاريخ .. ان من ينظر إلى صحفنا ومجلاتنا ومطبوعاتنا في
السنوات الماضية، وقبل الحرب المخزية ، وبعدها أيضاً، يستطيع
أن يقرأ بوضوح سوء المصير ، ويشم رائحة الضياع والحسرة ..
فهناك شعارات يومية عالية الصوت ، سوداء أو حمراء ، تسد
الآذان وتزحم الرأس ، وتهتف بها أجهزة الإعلام في كل
مكان، وهناك معارك وهمية من يتفحصها ويمعن الفكر فيها،
لا يكاد يجد دوافع حقيقية وراءها .. اختلطت الأوهام بالحقائق
وغلبت الأكاذيب على الصدق ، وامتزج الكفر بالإيمان ،
واختلت كل الموازين والأوزان ، وكان المفروض أن تكون
الهزيمة الكبرى صيحة عالية النبرة .. بل عاصفة صاخبة ..
تصنع النيام المخدوعين ، لكي يستيقظوا .. ليفكروا .. لا أن
يهرولوا إلى السلاح فحسب أو حشد الحشود ، ورصد الميزانيات
العسكرية .

ان الهزات التاريخية الكبرى تحتاج أول ما تحتاج إلى
وضوح .. هذا الوضوح يجرنا - إذا صدقنا مع أنفسنا - إلى
البحث عن « الذات المفقودة » .. عن شخصيتنا المتميزة بفكرها
وأصالتها وعقيدتها ، والشخصية العقائدية .. أعني الشخصية
المسلمة .. هي المنطلق .. وهذا كلام برغم بساطته يحتاج
إلى كثير من الفهم والاقناع والاستقراء التاريخي . والشخصية
المسلمة ، تعرف مكانها في الوجود ، ورسالتها في الحياة ،

وأسلحتها الروحية والمادية ، وتعرف مقاييس الموت والحياة والقوة والضعف ، والحرب والسلام ، لها علاقاتها المتسقة العادلة والطبيعية مع الآخرين وتصوراتها لمشاكل الحياة عامة والنفس الإنسانية خاصة . وما أكثر ما كتب الكتاب المؤمنون في ذلك ...
والشخصية المسلمة « متمية » ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ..

وهي أيضاً « ملتزمة » بما احتواه فكرها وضميرها من عقائد وتصورات ..

وهي شخصية لا تنكر « الصراع » الداخلي ، لكنها تنجو دائماً من التمزق والتحلل ..

والشخصية المسلمة مرتبطة بتراتها العريق ، لا ارتباط وثنية ، أو تقديس ، لمجرد الموميات والآثار والذكريات والمعارك القديمة لذاتها ، ولكنه ارتباط عقيدي صادق ، يجعل من هذا التراث قوة وفكراً وحضارة .. يجعل منه دعائم لشخصيتنا التاريخية الأصيلة قرائنا تجسيد لرسالتنا ، وتجربة حية ناضجة وناجحة « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .

والفلسفة — أية فلسفة — لا قيمة لها ما لم تشكل عقول الناس وفنهم وسلوكهم ، وتخوض معارك الحياة ، وتلاحم مع مشاكلها ، وتتحدى خبثها وانحرافها وزيفها ، بالنور الثاقب الذي تشعه الشخصية الأصيلة المتميزة .

تلك هي البداية .. ان نمزق ألوان الوهن الفكري ، والتميع الأخلاقي ، والتحلل الذاتي . وأن يكتسي العراة وذوو الثياب المرقعة ، بردائنا الحقيقي ، وأن ينسكب في ضمائرنا وفكرنا النبع الصافي ، الذي أشرقت به أيامنا الخالدة ، وانمحت به وساوسنا ، وتأكد به انتماؤنا والتزامنا ..

الديكتاتور المؤقتة ، لا تعطي للشخصية الجديدة الثبات والاستقرار واليقين ، ولكن تزرع فيها الخوف والتردد والانتظار المرهق المعبذب ، والقيود الاستثنائية تصرع الحريات ، وتذبل المواهب ، وتقتل الروح ، والمواقف السريعة المتناقضة المترددة لا تفرز سوى العلل من « شيزوفرانيا » و « بارانونيا » و وساوس قهرية بلغة علم النفس .. والمجاملات ، سواء أكانت فردية أو دولية ، لا تترك وراءها سوى الانهيار الأبدي للقيم العالية ، وأسس السعادة الإنسانية ، والاعتماد على الغير في كل شيء .. طفولة .. وحتى الأطفال قد يثيرون أو يتمردون ويحاولون اثبات ذاتهم .. أما الطنولة السياسية فهي خضوع تام .. وانعحاء للذات .. هي موت أدبي ومادي وسياسي واجتماعي وفكري ..

المعرفة أولاً ..

وعندما نعرف من نحن ، وفي أي عالم نعيش ، ونعرف من أين أتينا وإلى أين نسير .. يأتي « الانتماء » ..

والمتتمي « ملتزم » ...

انه رجل عقيدة وفكر ، رجل حركة وعمل ، يسترخص كل شيء في سبيل عقيدته ، ولا يقيس المعارك بحساب الحياة والموت والخوف والحسائر المادية ، وإنما يقيسها بالعمل الجاد المتواصل، أعني الجهاد .. بشتى فروعه وألوانه .. وبمقاييس الحق والعدل التي تشربتها روحه من النبع الإلهي الصافي .. المعرفة .. الإيمان .. الحرية .. الشخصية المتميزة ...

تلك معالم الطريق إلى عالم أفضل .. تنحسر عنه النكبات والهزائم .. والضيايع .. والتمزق .

فهل من مدكر ؟؟

أزمة المثقفين

« وكان الارهاب الفكري اعنف واقسى
من سياط الجلادين ، واسوار المناقي ، فما
ان يطلع على الناس عمل فكري أصيل ،
او أداء فني متحرر من أشكال العبودية
والتبعية ، حتى يرمى بالانحراف والتخلف
... والتبعية » .

آفة الأمة تكمن في ضياع مثقفها وعزقهم ، وهي أزمة
كثُر الجدل حولها ، في السنوات الأخيرة ، وقلما تجد دولة
من الدول الإسلامية إلا وتناقلت هذه القضية من قريب أو
بعيد ، وحاولت الوصول إلى بعض النتائج . وأياً كان الأمر ،

فان تلك القضية قد تشعبت وتعددت ، ولم تبلغ بعد مرحلة
الوضوح . وهناك أمر لا يستطيع أي مفكر منصف أن يتجاهله
وهو أن المثقفين ، لا تقع على عاتقهم وحدهم مسؤولية الانحراف
الشائن ، الذي أحال أمتنا إلى تجمع يفتقد إلى السمات ، أو
الصفات التي تميز أية أمة أصيلة من الأمم .. ولعل أول ما
يتبادر إلى الذهن هو تلويث معنى الحرية في أمتنا ، فقد تخطت
كثير من المخططين للمسيرة الشعبية ، في تحديد معنى الحرية .
وحاول البعض أن يركز على أن الحرية الحقيقية لا يمكن أن
يبرز فجرها إلا في ظل تأمين لقمة العيش ، أو العدالة الاجتماعية
للسواد الأعظم ، وقرر آخرون أن الحرية هي الحرية السياسية
في القول والعمل والنشاط الاقتصادي ، دون قيود مفرطة ،
أو ضغط صادر من السلطة العليا ، وظن البعض أن الحرية
تكمن أساساً في انطلاق النزعات أو النزوات الفردية ، دون
تقييد بدني أو خلق أو فلسفة قديمة . ومن ثم تشعبت السبل ،
وأصبحت السلطة الحاكمة هي التي تحدد مفهوم الحرية وتطبيقاتها .
ونستطيع أن نقول أن المثقف العصري وقف إزاء السلطات
مسلوب الإرادة ، مقيد الفكر ، لا يستطيع أن يختار أي
طريق يخالف طريق القوة التنفيذية ، كما خضعت السلطة
التشريعية بدورها للسلطة التنفيذية ، وانعكست الآية ، فبدلاً
من أن تكون السلطة التنفيذية أداة مرنة في يد السلطة التشريعية ،
أضمت السلطة التشريعية خادماً أميناً يسير مرغماً في ركاب
القادرين . وانطلقت أصوات ضعيفة معلنة رفضها لهذا الخلط

الخطير ، والانحراف المشين ، لكن سرعان ما اندحرت تلك الأصوات ، أو كتمت عنوة ، وطوردت أعنف مطاردة ، وانطلقت الأبواق الحمقاء ترميها بالخيانة لقضايا الشعب تارة ، والسير في ركاب الأعداء تارة أخرى . ولو كان الأمر أمر عام أو عامين لكانت الكارثة ولكنها امتدت لسنوات طويلة ، فتخرج في هذا الجو الموبوء جيل فاسد - له عذره - لا يتلقى وحيه إلا من خطب الزعماء ، أو برامج التلفزيون والاذاعة ، أو مقالات الصحف المديجة ، أو معاهد العالم التي تسير على نفس النسق ..

وملأت الآفاق شعارات رنانة، كان لها قوتها ومفعولها في نفوس السذج والبسطاء والخانعين ، وأصبح شعار « أعداء الشعب » يطلق على كل من تسول له نفسه الجهر برأي يخالف رأي السلطة التنفيذية حتى ولو كان هذا الرأي وجيهاً مبرئاً من الغرض الخبيث ، أو الطمع الشخصي ، فلم يكن غريباً أن يأتي يوم ، ويطلق نفس الشعار على صانعيه والمروجين له في كثير من دولنا ، في أعقاب التغيرات المتعاقبة التي تطرأ على نظم الحكم في مكان أو آخر .. ولم يفكر مصدر الشعارات في أن أولئك المظلومين - أعداء الشعب - إنما هم الامناء على شرفه ومسيرته النصالية ، وهم سدنة الحرية الحقيقيون ، وهم الذين نأوا بأنفسهم عن الذوبان والتشويه والقيود الجائرة ، في عالم « القوالب » المصبوبة ، التي مسخت انسانية الإنسان ..

ونفس الشيء حدث بالنسبة لكلمة « الرجعية » إذ التصقت
بـمـتها بأولئك الواعين العقلاء سواء أكانوا يساريين أو يمينيين ،
لأن المهم في الأمر ليس اليسارية أو اليمينية ، ولا التقدمية
أو الجمود ، ان التقاء السلطة التنفيذية على معنى أو مجموعة
من الآراء ، هو التقدم والازدهار وهو التحرر والانطلاق ،
وهو العدالة والرفاهية ، وما عداهم فهم المعوقون لحركة التاريخ
وهم الثورة المضادة ، وهم البرجوازية المتعفة ، وهم الفئات
المغرر بها ، ولذلك ظهرت في عصرنا بدعة « العزل السياسي »
التي أورثت شعوبنا ، كثيراً من الشك والتمزق واليأس ،
وحرمت كثرة ضخمة من ممارسة حقها في التعبير الحر ، والبناء
السليم ، وكان المواطن أصبح ضيعة لفئة دون غيرها ، وتحول
الباقون إلى اجراء أو عبيد ..

وهكذا صار المفكرون - كما يقول المفكر الروسي الهارب -
مجرد آلة صماء تعزف السلطة على حروفها فتطبع الحروف
منمقة وجميلة ، وزيفت نماذج البطولات ، وشوهت المثل
العليا ، واتخذت لها أشكالاً ومضامين جديدة أبعد ما تكون
عن الانصاف والصدق ..

وكان الارهاب الفكري أعنف وأقسى من سياط الجلادين ،
وأسوار المتنافي فما أن يطلع على الناس عمل فكري أصيل ،
أو أداء فني متحرر من أشكال العبودية والتبعية حتى يُرمى
بالانحراف والتخلف والتبعية ، ويعتبر صانعوه مرتدين خائنين ،

ومن ثم أصبح النقد لوناً من المطاردة العنيفة لكل ما هو جاد وأصيل ، حتى وجد المخلصون أنفسهم محصورين في زوايا ضيقة ، مرغمين على الاستسلام والصمت ، وخلا الميدان إلا من العازفين على أوتار القيثارة الرسمية ، فتحول الفن والفكر إلى هتاف وصياح وصرخات تشنجية ، وأصبحت الحرية هي تحدي القيم العريقة ، والسخرية من القيم الروحية ، والتجاهل لبطولاتنا وتاريخنا ، وادخلت على ثقافتنا مثل غريبة ، أبعد ما تكون عن آمالنا وتطلعاتنا وشخصيتنا المميزة .

وهكذا بدا الفكر شعارات مستعارة وتحول الفن إلى قصائد مدح يترنم بها الخائفون أو الطامعون ، وأصبحت الحرية معنى من معاني السيطرة والاذلال لغير السائرين في الركب المتسلط ...

تلك هي البيئة التي يعيش فيها المثقفون في أمتنا الكبيرة التي تربو على الستماية مليون ، وهي بيئة لا تسمح للبذور أن تنبت فيها ، وإذا نبتت ، وظهرت السيقان على وجه الأرض، متحدية عوامل الجفاف والتقلبات الجوية ، فان الأيدي الآثمة تمتد إليها لبرها أو لسحقها، بيئة لا ينبت فيها غير العوسج والشوك والنباتات المتسلقة ..

ولقد فقدت أجيالنا النათية المخدوعة احترامها للمثقفين من أبنائها ، إذ صورهم المغرضون بصورة المتخلفين عن قضايا عصرهم ، وبصورة اللاهثين وراء فتات الموائد ، والمترددين أو المتقاعسين أمام القضايا المصيرية ، ولكي يخفوا هذا الظلم

الواقع على هؤلاء المثقفين ، أو يداروا وجهه الحقيقي ، نادوا بأن هذا العصر عصر العلم ، عصر التغيير والتطور السريع لا عصر الشعر والفكر المريض والحريات التقليدية الزائفة .. ان ضيق الأقوياء المسيطرين بوعي الفكر وأمانته ، جعلهم يتخبطون في آرائهم ويلقون بالكلام على عواهنه ، ويخلطون خلطاً مضحكاً ، وينادون بقضايا لم يعد ينكرها أحد ، فالعلم ضرورة ، وكذلك الفكر أو الفن ضرورة ، والحرية ضرورة ، وهي كلها نسيج واحد ، أو بناء متكامل ، وذلك التفسخ الذي يروج له الحمقى ، إنما يكون على حساب مستقبل أمتهم ومستقبلهم أيضاً ..

ان غياب الشخصية المؤمنة المتوازنة ، ذات السمات المميزة الصافية المأخذ والعطاء ، قد خلف لنا « بناء » من نوع غريب ، نوع من البشر الهلامي المتعصبين ، يخوضون معارك من الوهم ، حيث لا موجب لمعارك ، ويضربون يمينا مع أن عدوهم يقبع لهم يساراً ، ويتراجعون إلى الوراء ، من حيث يجب أن ينطلقوا إلى أمام ، ويتشون بكوؤس فارغة ليس فيها غير الخداع والسراب ، ولم يستطع هؤلاء « البناء » أن يقدموا للعراة والظماء سوى بيت من العنكبوت . وكيف يثبت بيت العنكبوت أمام خبث العدو ومكره ودهائه وفكره وفنه وعلمه ووعيه ... وكيف يستطيع الخائفون والمترددون ولا بسو الأقنعة الزائفة أن يحسموا قضية ، أو يستमितوا في معركة ، أو يحموا كرامة ؟

أجل ان تلك البيئة التي تنتشر فيها الأوبئة ، لا تهب
الصحة والعافية للذين يخوضون في أوحالها ومياهها الآسنة ،
لكن المثقفين الحقيقيين ، يجب أن يضعوا على رؤوسهم عصا
« أبي دجاجة » وأن يتحدثوا عوامل الوهن والخوف ، وينتصروا
على الوباء ، وأن « يمحسونوا » فكرهم وفنهم بمضادات الفناء
التي يخطط لها عدونا الأكبر .. ويجب أن ندرك أن الأوبئة
دائماً تأتي في موجات ومواسم ، ولم يثبت طول التاريخ الإنساني ،
أن أي وباء مهما كانت قوته وعنفه استطاع أن يفني الجنس
البشري .. المثقفون هم أطباء هذا العصر ، ويا ويحنا ان تحولوا
إلى طائفة من الدجالين أو السحرة أو كاتبي التماائم والتعاويد ...

وأنا لا أرفض التحيز بالنسبة لأي مثقف ، وهذا مجرد
رأي ، لكن الذي أرفضه أن يكون هذا التحيز منبعثاً من
ثقافة ناقصة ، أو خبرة متهافئة . ان لكل مفكر موقفاً ، ولكي
يختار موقفه ، يجب ان يتدارس المواقف الهامة والبارزة فكثيراً
ما قرأت لقوم بها جمون الأديان دون أن يلموا بأصولها الأولية ،
دون أن يعرفوا فرائض الوضوء ، فما بالك بالبناء الكبير
الذي يضم الفكر والأخلاق والاقتصاد والسياسة .. الخ !!
وكثيرون أخذوا علمهم عن مبشر حاقد ، أو مستشرق ناقم ،
أو كاتب موتور ، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث عن
الحقيقة المجردة في منبعها وأصولها ... لذا أقول لا بأس أن
يكون لكل مفكر موقف .. أي أن يتحيز لموقفه .. على أن

ينطلق هذا الموقف عن وعي وفهم ودراسة ...

ان المثقفين في أزمة ...

وأنا أدعو كل مؤمن ، أن يساهم بنصيب في اضاءة
جوانب هذه القضية الكبرى في عصرنا ..

الازهر

« ... لو حدث ذلك فلن يسير العلماء
في ذيل الموكب ، او يستخدموا لغايات
غامضة . إن العلماء في الدول المتحضرة
هم اصحاب التأثير الحقيقي في هذا
العصر . »

لا ينكر أحد الدور الكبير الذي لعبه الفكر الديني في
تاريخ امتنا ، فقد استطاع الفكر الديني أن يحمي تراث شعبنا ،
ويصمد لتيارات الغزو ، ويساهم بالنصيب الأوفر في تحريرنا من
ربكة الاستعمار ، ويحافظ على سمات شخصيتنا . وانني لألقي
نظرة عابرة على تاريخ العالم الإسلامي الكبير ، فأرى أعلام نضاله
هم العلماء حملة القلم والسيف ، سواء في الهند أو أندونيسيا ،
أو ايران والشام وتركيا ومصر والمغرب العربي ، حيث كانت أعلام

الإسلام تخفق في سماء المعارك الكبرى . ولا يعني في هذا المقام أن تكون هذه المعارك قد تعثرت في قليل من الأحيان ، أو استطاع الماكرون أن يسرقوا ثمرة كفاح الجهاد المقدس ، وإنما الذي يعني أن الفكر الديني في ايجابيته ، لم يأس أو يزايد أو يساوم ، وأثبت كفاءة عالية ستبقى أبد الدهر مفخرة من أعظم المفاخر ، برغم الشغب الاعلامي الذي أطلق قنابله المسيلة للدموع لتعمية الجماهير وتشويه وجه النضال الإسلامي الباهر ..

والثقفون في أمتنا ، للأسف ، عموا عن هذه الحقيقة ، أو تجاهلوا أو جهلوا ، وكيف لا يحدث ذلك ، ومصادر السلطة تنحو هذا المنحى ، مدعمة بتوجيهات الحاقدين من المستعمرين والمبشرين وكيف لا تضطرب مفاهيم المثقفين ، وهم يرون « التاريخ » الحديد ، وفلسفته المضحكة ، وماديته المسيطرة ، تفرض سلطانها على المؤرخين ، فيعيدون كتابة التاريخ من وجهة النظر الطبقية ، أو التحولات الصناعية ، والأزمات الاقتصادية ، وكأن العامل الأوحده في صنع أحداث التاريخ هو الاقتصاد ، كما يزعم ماركس وغيره . وما دام الأمر أمر ماركس ، فليكن الدين أفيوناً للشعوب . وليكن الفكر الديني خديعة وخيانة لحركة التاريخ ، ولطبقة الكادحين ، وثورة مضادة للتقدم ، ومن ثم لم يكن غريباً أن يسحب مثقفونا ستاراً من التجاهل على روعة الفكر الديني وأثره ، ويلصقون « الكليشيات »

الماركسية ، على أفقية التاريخ المسكين ، ويزوقه بالشعارات الخادعة ، فيتحول إلى « بلياتشو » تعس يثير الضحك عند السذج ، كما يثير الدموع عند الواعين المقهورين ..

هذه الضغوط الهائلة والتهم الباطلة التي وجهت بدهاء وخبث نحو الدين وفكره ورجاله ، قد عوقت من انطلاقاته ، واربكت من خطواته ، وكان المفروض في المثقفين برغم كل شيء أن يفتحوا أعينهم جيداً على الخدعة ، وأن يحموا تراثهم وفكرهم الديني ، وأن يطالبوا بالحرية الحقيقية لعلماء الدين ومؤسساته . وأراني في هذه العجالة مضطراً لتناول أخطر منصب ديني في البلاد الإسلامية ، وهو منصب شيخ الأزهر ، الذي يوشك أن يفقد تأثيره ودوره الجبار . وقبل أن أتناول هذا الأمر ، أريد أن ألفت نظر المثقفين في بلادنا الإسلامية إلى « البابا » في روما ، حتى لا يظن ظان أن ما سأقوله يعتبر بدعاً أو هذياً لا يليق بعصرنا ، فالبابا يعيش في الفاتيكان ككيان محترم ، لا يخضع لسلطة أو ضغط معنوي أو غير معنوي ، البابا في روما له سفراؤه وسلطاته ، والبابا بيدي رأيه في أعنى المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، دون أن يساور أحد الشكوك في أن ذلك خارج عن اختصاصاته ، وقد يكون رأي البابا مخالفاً لحكومة إيطاليا ، وقد يهاجم الحكومة في عنف ، وتتردد كلماته في جميع أنحاء العالم المسيحي دون رقيب أو وعيد ، وتنحني الرؤوس اعزازاً واحتراماً . لم يفكر أحد في أن يقول للبابا لا تخط الدين بالسياسة ، ولا تمزج

العبادة بنظم الحكم ... ولم يفكر أحد أن يحيل البابا على التقاعد ،
أو يهدده بالفصل ...

ان منصب شيخ الأزهر يحتاج إلى وقفة طويلة ، يحتاج
إلى تفكير منصف من مثقفينا الذين يهتمهم مستقبل الأمة الإسلامية
ومستقبل دينهم وفكرهم ، وأراي هنا مضطراً أن أطلقها
في قوة وصراحة : يجب أن نحرر منصب شيخ الأزهر تحريراً
كاملاً من كافة الضغوط والتأثيرات والمعوقات . يجب أن
يعطى هذا المنصب « حصانة » كاملة ، أسمى من تلك الحصانة
التي يسبغها الحاكمون في أية دولة على سدة الحكم والسياسة ،
وحفظه الأمن - الاستخبارات - وأعضاء المنظمات الحزبية
الذين يتمتعون بالثقة الكبيرة .

يجب أن نخطو الخطوة الأولى في هذا الطريق ، وذلك
بألا يكون للحكومة أو لرئيس الدولة أية سلطة أو رأي في
تعيين شيخ الأزهر ، بل يكون تعيينه بناء على رغبة أكبر
وأعلى هيئة دينية إسلامية في البلاد ألا وهي هيئة كبار العلماء ،
هذه الهيئة هي التي تنتخب من بينها الرجل المناسب من الناحية
العلمية والأخلاقية والصحية ليملاً هذا المكان الهام في العالم
الإسلامي ، وأن ينظم ذلك لائحة واضحة متحررة من كل
ألوان الرغبات السياسية أو المذهبية ، ودون شروط مسبقة ،
وألا يكون لتاريخ الرجل السياسي ورأيه أثر في ذلك ..

والخطوة الثانية ، أن يظل شيخ الأزهر في منصبه باقي حياته . ان شيخ الأزهر بشر ، وقد يتأثر بالضغوط المتعلقة ببقائه في منصبه أو اخراجه منه ، وتحريره من تلك الضغوط يحميه من الانتكاس ، وينجيه من كارثة الصمت حيث لا موجب للصمت ، وينجيه من الوقوع في بعثرة الكلام حيث لا موجب لذلك ، ويجعل من توجيهاته وكلماته منارة لأبناء الأمة في مشارق الأرض ومغاربها ...

وأطالب أيضاً بحصانة مماثلة لهيئة كبار العلماء ، كالحصانة المتاحة لنواب الأمة والتي يكفلها القانون . ان أية قيود توضع للحد من حركة شيخ الأزهر أو هيئة كبار العلماء ، تعني عدم الثقة .. تعني الخوف من كلمة حق تقال .. تعني شل الفكر الديني واعاقته عن أداء دوره ..

لو حدث ذلك ، فلن يسير العلماء في ذيل الموكب ، أو يستخدموا لغايات غامضة ، أو حاشية في أي بلاط . سيؤدون دورهم الطبيعي المؤثر ، بما يملكون من صلاحيات حقيقية ، وميزانية كافية ، وجوهر أصيل . ان العلماء في الدول المتحضرة هم أصحاب التأثير الحقيقي في هذا العصر ، وانتظام عالم الدين في هذا النسق ان لم يكن فرضاً فهو ضرورة ..

ويجب أن يكون لشيخ الأزهر سلطاته ، وكذلك العلماء . فما أكثر الكلمات المنصفة الجادة التي لا يستجيب لها أحد ، لماذا لا يوضع ذلك كله موضع التحقيق والتحري ؟؟ ان تجاهل

كلمة الدين أصبح أمراً مألوفاً لا يثير ثائرة أحد . أو يحرك جمهورنا المستسلم .

لكني في نفس الوقت لا أنكر أن هناك فجوة كبيرة بين علماء الدين والمثقفين في أمتنا ، ولن نستطيع أن نقضي على هذه الفجوة إلا بعمل بناء مشترك من الطرفين ، فعلى رجال الفكر والثقافة الدينية أن يهتموا « بلغة العصر » ، وأن يقتربوا أكثر من تراث عصرهم واهتماماته وإنجازاته ، وعلى المثقفين أن يستكملوا ثقافتهم الدينية والتاريخية ويتحرروا من شعارات الإنثم والتهريج وأن يدركوا أن حركة التاريخ لا يحركها عامل واحد مهما عظم ، وأن التغيرات الكبرى ، لا تدفعها حتمية اقتصادية فحسب ، وإنما هناك العديد من العوامل تلعب دورها في صنع الأحداث ...

ان في حياتنا العامة أسساً قد نخرها السوس والعطب ، وهيهات أن يشمخ فوق ذلك الخلل بناء ، أو تستقر عليه قوة حقيقية ، فاذا أردنا النجاة فلا مفر من أن نكون شجعاناً في محاربة الفساد ، وأن ننفي الخبث ، حتى نضع الأساس السليم ، كي يصمد عليه بناء المستقبل الكريم ، ومن أبشع ما في حياتنا العامة اهدار الحريات ، وتجاهل العلل ، واللجوء إلى المسكنات الوقتية أو نصب حلقات الزار ، واطلاق البخور ، والانتعاش الوقتي بدقات الطبول ، وصراخ الناي المستيري ...

وأمل كبير في أن ذلك « الرمز » الكبير الذي صمد للدهر

ألف عام منذ بناه جوهر الصقلي ، وتحطمت على صخرته
غزوات الطامعين والطاغين ، أمني أن يبقى باذن الله درعاً
للإسلام والمسلمين .. ومنارة للسالكين .. ونبعاً للعطاش في
حياة الظمأ والعناء والآلام .
ودعاء من الأعماق بأن يمد الله في عمره ، ويجعله أعلى
منبر على الرقعة الإسلامية الشاسعة

الحرية

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم
امهاتهم احراراً »

الفرق كبير بين حفظة الأمن وجلادي الشعب ، حقيقة هامة يجب أن يدركها المثقفون في أمتنا ، والحقائق البديهية الأولية للجدل الفارغ ، والتبريرات المضحكة . وأنا لا أسوق الكلام اعتباطاً ، ولا أتهم المثقفين بما ليس فيهم ، فلو نظرنا إلى الحقبة المنصرمة ، لوجدنا كثيراً من الأقلام الخائفة أو الطامعة ، كانت تبرر العنف ، وتخلق له الاعذار في الداخل والخارج . أذكر أنه عندما صدر كتاب « الحرب النفسية » لرجل المخابرات المصري القديم صلاح نصر ، أفردت له بعض الصحف مساحات كبيرة لعرضه ، والثناء عليه ، وتحليل « روائع » الفكر العميق فيه ..

وكان الكتاب دعوة صريحة لهدم النفس الإنسانية ، وكيانها الروحي والبدني فيما يسميه المؤلف بعملية « غسيل المخ » .. كان دعوة لمسح الإنسان ، وتحويله إلى حيوان للتجربة ولم نقرأ سطوراً واحداً في مهاجمة الكتاب ، أو مجرد نقد منهجه أو الاعتراض على الأسس السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي نهض عليها . ثم تمر الأيام ويسقط صلاح نصر .. وتنهال عليه التعليقات ، ويرمى بالحيانات ، ثم تأتي نفس الصحيفة بل نفس الكاتب الذي أثنى على كتاب « الحرب النفسية » يأتي ليكتب أعمدة ضافية عن انحراف المخابرات وتزييفها للوقائع ، وارهاقها للفن والفكر وحرية الإنسان وكرامته ، وتدميرها أو تشويهها لمكاسب الشعب .

إن المثقفين في أمتنا يدركون قبل غيرهم ، أن « حرية الكلمة » تضيء الطريق ، وتسرع بالخطى إلى التقدم الحقيقي ، وتخلق الوعي المستنير ، وتحرك الفكر . وتثري الوجدان ، وتصنع الإنسان المتحضر المتفتح .. الكلمة الحرة تجعل من أفراد الأمة مواطنين شرفاء .. قادة .. كلهم قادة .. وأعني بالقيادة ، شعور كل فرد بمسئوليته الذاتية نحو أمته وقضاياها ، أنها ضرب من الاخلاص والحب ، وشعور بالمشاركة الفعلية في تحمل العبء ، فالعبيد يؤدون دورهم في الحياة ، ان رضوا أو سخطوا ، والأحرار يجدون دوافع سامية ، تشرق في قلوبهم وأرواحهم ، وتملأهم اعتزازاً بأنهم حماة الوطن وتراثه ودينه ..

هم الوطن .. والوطن هم .. نسيج واحد لا يمكن تجزئته
أو فصله ..

والكلمة الحرة لا يخافها إلا المرضى والمتشككون والطغاة ،
ولا يحاربها إلا منحرف ، لندع الكلمة الحرة تنطلق ، ولنترك
الأفكار تناقشها ، فالسلطة ليست وحدها صاحبة حق الرفض
والقبول ، فالمصلحة العامة : كما هو واضح من تركيبها ،
تكتسب صفة العمومية ، وهي مصلحة القائل والمتلقي ، والمؤيد
والمعارض ، والذين يرفضون الكلمة الحرة جبناء ، أو يشعرون
بأثم خفي .. ذلك الشعور بالإثم الذي يعمل في قلوب اللصوص
والكاذبين والمتآمرين .. ويجب أن يدرك المثقفون أن الكلمة
لن تكون حرة إلا إذا تحررت « الأداة » التي تحمل هذه الكلمة..
أي لا بد أن تتحرر الصحافة من قبضة السلطة ، وأن تملك
وسائل النشر مصيرها وحريتها في الحركة.. وان تتحرر الجامعات
من سيطرة الارهاب والقهر ، وأن يترك للنقابات حرية التعبير
دونما عنف أو اضطراب أو فوضى .

وبالنسبة للعاملين في حقل « الدعوة الإسلامية » ، أعتقد
أنه يجب أن يضعوا قضية الحرية على رأس الموضوعات التي
يعالجونها ، ففي ظل الحرية المتاحة يستطيع حملة الفكر الإسلامي
أن يتكلموا .. وينشروا كلماتهم .. ويواجهوا انحراف العقائد ،
ويلتقوا بجمهور الأمة دون تهيب .. عندئذ يستطيع الفكر
الإسلامي - في ظل الحرية - أن يدخل في حياة الناس في

النادي والمصنع والشارع والمدرسة والحقل .. أن يعمل في النور ، ويرفع هامته ، دون أن تصطدم رأسه بسقف زنزانة ضيقة ، أو يهوي عليه سوط جلاد ، أو تحطمها قبضة طاغية ، عندما تتحقق الحرية : يفتح الطريق أمام القيم العامرة بالحب والإيمان والعدل .. ويجب أن يؤمن المثقفون في أمتنا ، بوحدة قضية الحرية ، فالحرية ليست وقفاً على جماعة دون جماعة ، ولا حزب دون حزب ، ولا مذهب دون مذهب . الحرية حتى الجميع في الوطن الواحد أو الأمة الواحدة .. ولا اكراه على الاطلاق .. حتى الدين « لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » .

ان مصادرة الينايع العذبة الصافية، وترك الموارد الآسنة ، قد لوث أمعاءنا ، وأصابنا بجراثيم الخوف والحقد والانطوائية ، وأورثنا الجبن والضعف والهوان . وان سيطرة المغرضين على مقدرات الأحرار ، ومنابر الرأي ، وأجهزة الأعلام ، قد سمم الجو بغازات خائفة ، لا تنمو فيها ارادة ، ولا تزدهر فيها براعم ، ولا تثمر فيها فضائل ..

فلنرفض الارهاب الواقع على الآخرين كما نرفضه بالنسبة لنا أو لأصدقائنا ، ويوم أن يكون فهمنا للحرية فهماً حزبياً قليلاً عنصرياً ، فلن تكون تلك هي الحرية ، ستكون ضرباً من الزيف والظلم الذي لا يرضاه الله ورسوله .

والحرية بالنسبة للمسلم الفرد ، تحددها آداب دينه ،

وأوامره ونواهيه . وخروجه عن هذه الحرية الذاتية ، أمر يعاقبه الله عليه ، ولا حكم لأحد عليها إلا إذا تخطت دائرته الشخصية ، وانعكست على أخلاقيات المجتمع ونظمه وحقوق أفراد ، في ظل المبادئ التي كفلها الله لعباده .. والاضرار بالمجتمع أو الآخرين ، أمر لم يترك توضيحه أو البت فيه لإدارة حاكم أو هيئة أو طائفة .. وإنما أوضحته آيات الكتاب الكريم ، وتعاليم الرسول ، وسيرته العطرة .. ولا شك أن العودة بالمقاييس الخاصة بالحرية إلى خالق الكون ، يحيط الحرية بكفالات مقدسة ، ويحميها بنصوص إلهية تسمو فوق طاقة البشر ، وفكرهم وفلسفاتهم ، وتضع حداً للخلافات المذهبية والشخصية بين الناس .. ولنحذر في هذا المقام تأويلات الخائفين من العلماء ، أو المأجورين من الادعياء . ولنعتصم بالمنابع الأصيلة ، والمصادر النظيفة .

ان ما يصيب الحرية في القتل أن نحرص عليها لأنفسنا ، ونحرمها على معارضينا .. والحرية نعمة من نعم الله الكبرى ، والله سبحانه لم يحجب كثيراً من نعمه عن الإنسان والحيوانات والحشرات .. والحرص على الحرية يحتاج إلى بطولة .. إلى تضحية ، فعندما تتكس الحرية ، تضطرب الموازين ، وتسوء العاقبة ، ويغرق الناس في جو من الفتن كقطع الليل المظلم . وكلما امتد سلطان الظلم ، ازداد الجبايرة تشبهاً بنفوذهم . وأمعنوا في غيهم وانحرافاتهم ، فيستكين الناس – ولو إلى حين – إلى الذلة والصمت والخوف ، فيستشري الفساد .

وتتوقف عجلة التقدم ، ويجد أعداء الله والإنسانية الفرصة مواتية للانقضاض على ما تبقى من قيم وعقائد ، وتسود الجاهلية من جديد .. ولن تخفى معالم الجاهلية لمجرد عمارات ضخمة تقام ، وجامعات كبرى تنشأ ، وجيوش مجهزة بأحدث الأسلحة تحشد ، ووسائل حضارية تستورد .. فالجاهلية معنى قبل أن تكون مبنى ، والجاهلية فكر منحرف ، وروح خربة ..

واجب المثقفين أن يتغنوا بالحرية في كل زمان ومكان .. أن يجعلوها رسالتهم الأولى ، لأنها المناخ الحق لترعرع الفضيلة والقيم الخالدة ، وسعادة الإنسان .. أعود فأقول أن هناك فرقاً كبيراً بين حفظة الأمن ، وجلادي الشعب .

وعناصر الأمن في الأمة كثيرة . ولن يكون ضرب المعارضين - كل المعارضين - حفظاً للأمن ، ولن يكون الارهاب ، وتجاهل القانون والدستور مدعاة للأمن . لأن أمن المواطن جزء من الأمن العام . فما معنى أن نحفظ الأمن بالوسائل البربرية لحماية السلطة . وفي نفس الوقت نحرق أمن الجماهير ، ونحيل حياتها إلى رعب وجحيم وشكوك .. وأياً كان الأمر فإن ضرب المواطن ، وحرمانه من حق التعبير ، وعدم اطمئنانه على كيانه الاقتصادي والروحي والفكري ، لن يحقق أمنه ، وبالتالي لن يتحقق للوطن الأمن المنشود .

والغريب أن التجارب العديدة . في حياة الأمة ، على مدار السنين الطويلة ، قد أوضحت هذه الحقائق بما لا يدع مجالاً

للشك . وحدث أكثر من مرة أن ردد الحكام وغيرهم ضرورة إقامة الحرية على أسس سليمة . دونما رقابة أو غدر أو اعتساف ، لكن سرعان ما تتسرب وسائل العنف : وتنمو مراكز القوة ، وتتغلغل المطامع ، ويعود الظلام ، ويمارس العنف بشتى صورته وألوانه ، دون مراعاة لقانون أو ضمير ..

ثم أليس للمجرم حق ؟ ان المخطئين سياسياً ، خطأ يحدده القانون : لا يمكن أن يتركوا هكذا لتصرف القساة من رجال الأمن . ومن حق المخطيء الذي يكون تحت طائلة التحدي والتحقيق ، من حقه أن يعامل كإنسان من ناحية المأكل والملبس والمشرّب ، ومن ناحية رزق أسرته واتصاله بهم من طريق الزيارات القانونية . وتبادل الرسائل ، وحق الدفاع عن النفس ، وعدم تعريضه لوسائل التعذيب التي كثيراً ما وصلت به إلى الموت .. للمتهم حقوق .. وللمجرم حقوق .. تكفلها القوانين الدولية ، والقوانين المحلية ، والخروج عنها خروج على القيم الدينية والإنسانية الشريفة .. وهل ننسى أن حملة السياط بالأمس . وجبايرة السجون . في كثير من الدول ، قد أصبحوا بين عشية وضحاها مساقين إلى منصة القضاء : تثقل كواهلهم وخطاهم جرائم سياسية .. ونزلوا بالأماكن التي كان ينزل بها ضحاياهم في الماضي ؟ ان حماية أمن المواطن — أي مواطن — سينسحب على الجميع ، سيحمى الظالم والمظلوم ويحمى القاضي والمتهم ، والمؤيد والمعارض ، فالتحولات

سريعة ، والأيام — كما يقولون — دول ، ولا نجاة إلا بالتعويل على القانون ، والحصانة الحقيقية للقضاء ورسـل العدل . وجعل القضاء بمنأى عن التقلبات . بعيداً عن التأثيرات والاغراءات والتهديدات .. فـالقضاء الحر النزـيه هو شرف الأمة ، وعنوان أمنها ، ومناطق حريتها .. هو الحارس الحقيقي لأمن الوطن والمواطن .. ولا معنى لأمن سياسي يفقد المواطن فيه أمنه ، فعلى رجال الأمن أن يتقنوا أن حمايتهم للحرية ، وسيادة القانون إنما هو الأمن الحقيقي ، والرسالة الصادقة ..

ويجب أن يعلم المثقفون أن سقوطننا تحت حماية أمة كبرى ، نأتمر بأمرها ، ونخطط سياساتنا على هواها . سوف يسلبنا بالتبعية حق التعبير الحر كأمة ، والأمة التي تفقد حرياتها على أعلى مستوى ، مستحيل أن تحقق الحرية والأمن لمواطنيها .. وفي التلميح ما يغني عن التصريح ..

الحرية وحدها هي الطريق .. ومنها تنبت القيم الفاضلة .. وفي ظلها ترتفع منارة الإيمان والعدل والاخاء .. فلنجعل من الحرية أغنية على كل الشفاه .

محتويات الكتاب

٥	هذا الكتاب
٧	مقدمة
١٠	حول الدين والدولة
٣٦	حول الفن الاسلامي
٦٣	الانتماء والالتزام
٦٩	ازمة المثقفين
٧٧	الازهر
٨٤	الحرية

صدر عن « دار النفائس »

الطريق إلى المداين

أحمد عادل كمال ١٢٠٠ ق.ل.

تاريخ فلسطين القديم

ظفر الإسلام خان ٣٥٠ ق.ا.

الفتنة ووقعة الجمل

رواية

سيف بن عمر الضبي الأسدي

جمع وتصنيف أحمد واتب عرموش ٤٥٠ ق.